

# دعائم الاستقرار

## في التشريع القرآني

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد محمد المدني

المفتش بالأزهر

بيننا فيما سبق كثيرا من الآيات والموضوعات التي تدل على أن القرآن الكريم قد عني تمام العناية بأن يكون تشريعه قائما على إقناع المكلفين بحاجتهم إلى التقيد بتشريع معين في أمر معين ، حيث لم يأت حكم من أحكامه إلا والأمر يتطلبه ، والإحساس العام للمكلفين بترقبه ، وهو مقتنع به بفطرته ، أو بعد البيان من العلم الحكيم . وبذلك انتهى الكلام على الدعامة الأولى من دعائم الاستقرار في التشريع القرآني .

وأما الدعامة الثانية : ونقصد بها اقتناع المكلفين بشرعية السلطة التي عنها تصدر التشريعات ، فإننا نجد القرآن الكريم يبرزها أيضا ، ويعمل على أن تكون واضحة في نفوس الناس ، متقبلة بما ينبغي لها من قبول حسن عند المكلفين .

إن التشريع إلزام وتكليف ، يفرض فيه المشرع إرادته على طائفة من الناس ويأخذهم بها ، ويجعلها نظامهم الذي يسرون عليه ، ولا يحق لهم التفلت أو التخفف منه ؛ والفطرة تقضى بأن يكون الملزم والمشرع ذا سلطان مسلم به ، تخضع النفوس لإرادته ، وتدعن لحكمه ؛ وهذا السلطان قد يكون قائما على القوة المادية ، والقهر والغلبة ؛ فلولا ذلك ما بقي ، ولولا ذلك ما رضى به الراضون ، وخضع له الخاضعون ؛ وقد يكون مستمدا من الهيبة المعنوية والاحترام الروحي

وتقبل المكلفين له عن رضا نفسى ، وإيمان قلبى ، سواء أ كان هو جديرا بذلك فى نفس الأمر ، أو ليس جديرا به .

ولذلك شهد العالم فى أطواره المختلفة أنواعا من التشريعات ، اختلفت مصادرها ، واختلفت باختلاف هذه المصادر حظوظها من الاحترام والتقدير والبقاء . شهد العالم تشريعات القوة والضغط والجبروت ، حين يكون أصحاب الأمر مقتضيين للأمر ، لا يعتمدون فى حكمهم على حق مشروع ، وإنما يعتمدون على القوة والبطش والتشكيل بمن يقف فى سبيل رغباتهم ، فتبقى هذه التشريعات ما بقيت القوة التى تستند إليها ، حتى إذا انهارت انهارت معها غير مأسوف عليها . وشهد العالم نوعا آخر من التشريعات لا يعتمد القوة والإرهاب ، ولا يقوم على البطش والتشكيل ، ولكنه يعتمد الخداع والتضليل واستغلال جهل المحكومين أو غفلتهم أو سذاجتهم ؛ وتلك هى تشريعات الأجبـار والرهبان والرؤساء المتصدرين باسم الأديان ؛ كانوا يحلون ما يشاؤون ، ويحرمون ما يشاؤون ، وكان الناس لفرط عمايتهم وجهالتهم يتقبلون منهم ذلك ، ويتخذونهم أربابا ينزلون على أحكامهم ، ويرضون بتحليلهم وتحريمهم ؛ وقد بقى لهذه التشريعات سلطانها وقبولها عند الناس ما بقيت الجهالة والضلالة ، حتى إذا انكشف الغطاء ، وانجلت الغشاوات ، وأفاق العقل البشرى أو رشد وحصف ، تزلزلت هذه التشريعات بتزلزل مصادرها ، وانطوت مع التاريخ كما انطوى أصحابها .

ثم كان لا بد أن يدرك الناس أنهم متساوون فى الإنسانية ، وأن أحدا منهم لا يمتاز عن غيره بميزة تجعله مشرعا للآخرين ، وتلزمهم بقبول تشريعـه ، فهم جميعا مخلوقون لخالق واحد ، وهم جميعا مملوكون لمالك واحد ، هو الذى خلقهم وأنعم عليهم ، فله وحده حق التصرف فيهم ، والأمر والنهى ، وأن يقول هذا حلال وهذا حرام . كان لا بد أن يدرك الناس هذا ، لأنه هو الواقع الصحيح فى نفس الأمر ، ولأنه هو الذى تستقيم عليه شئون البشر ، ويستقر معه أمر التشريع ؛ ولهذا جاءت الدعوة الى التوحيد والإيمان بالله خالق قادر منعم ، والى جانبها الدعوة الى نبذ الأرباب من الرؤساء والاعبار والرهبان الذين زعموا لأنفسهم حق التحليل والتحريم ؛ فأنحصرت الربوبية فى الله حـكـا

وتشريعا ، كما انحصرت فيه جل جلاله خلقا وإنعاما وتصريفا . بذلك جاءت الرسل ، وبذلك نزلت الكتب ، وقد أوضح القرآن الكريم هذا المعنى وجلاله حتى لم يعد في شأنه أدنى خفاء .

١ - قاله سبحانه وتعالى هو ، المشرع ، لأنه الخالق المالك المضم المتصرف ، والناس جميعا خاضعون لسلطانه بحكم ربوبيته وعبوديتهم ، قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب ، قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا ، قل آله أذن لكم أم على الله تفترون ؟ ، « إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين » ، أليس الله بأحكم الحاكمين ، « وأن أحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذروا أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك ، فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم ، وإن كثيرا من الناس لفاسقون . أحكم الجاهلية يبغيون ؟ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون . » والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب ، « ولا يشرك في حكمه أحدا ،

٢ - ومثل ذلك ألفاظ : شرع وشريعة وشرعة ونحوها ، فقد جاءت كلها مضافة إلى الله على أن الأمر فيها له ، ومنفية عن سواه أو منكرة عليه ، شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ، فكل الشرائع هو الذي شرعها ، لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ، « ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون ، » أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ، .

٣ - ومثل ذلك أيضا ألفاظ التحريم والتحليل ، قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ، « وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وقد فصل لكم ما حرم عليكم ، » قل أذكركم حرم أم اللاتنين ، « قل هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا ، » لم تحرم ما أحل الله لك ، « فيحلوا ما حرم الله ، » قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، « يأبى الذين

آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا ، ، وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء ، بزعمهم ، وأنعام حرمت ظهورها ، وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افترأ عليه ، سيجزيهم بما كانوا يفترون . وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا ، وإن يكن ميثقه فهم فيه شركاء ، سيجزيهم وصفهم ، .

إلى غير ذلك من الآيات التي يغرس بها القرآن في نفوس المؤمنين مبدأ الحكم الصحيح والتشريع الصحيح ، من أن الحكم لله ، والتشريع لله ، والتحليل والتحريم لله ، وأنه ليس لأحد من المخلوقين أن يحكم أو يشرع إلا بما حكم الله وشرع الله .

٤ — وقد بين القرآن في هذا أن الرسل لا يأتون بشيء من التشريع ولا يحرمون ولا يحلون إلا بإذن الله ، وأنهم إنما يبلغون أحكام الله ؛ ولذلك نجد في الكتاب الكريم مثل قوله تعالى « من يطع الرسول فقد أطاع الله » ، فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ، « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله » .

ويعتبر القرآن أمر الأنبياء في ذلك مستمدا من أمر الله ، حيث وهب كلا قسطا من الحكم والتشريع باسمه تعالى وإذنه ؛ وفي ذلك يقول عن موسى « ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما ، وعن يوسف « ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما ، وعن لوط ، ولوطا آتيناه حكما وعلما ، وعن داود وسليمان « وكلا آتيناه حكما وعلما ، وقد دعا إبراهيم ربه فقال « رب هب لي حكما وألحقني بالصالحين » إلى غير من الآيات .

وقد أجل القرآن الكريم مصادر التشريع في قوله تعالى « يأها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا » .

فالمصدر الأول هو القرآن الكريم ، وإطاعة الله هي العمل به ؛ والمصدر

الثاني هو السنة ، وإطاعة الرسول هي العمل بها ؛ والمصدر الثالث هو إجماع أولى الأمر وأهل الحل والعقد الذين تثق بهم الأمة ، وطاعتهم هي النزول على ما اتفقوا عليه ، والرضوخ لما حكموا به استنباطا من كتاب الله وسنة رسوله ؛ فإذا لم يتفقوا على شيء ، بل تنازعوا فيه واختلفوا ، عرض ذلك على الكتاب والسنة ، وعمل بما يرشدان إليه ويدلان عليه .

وبهذا تبين أن المصادر كلها راجعة الى مصدر واحد هو الله جل علاه ، وأن التشريع القرآني يجعل المؤمنين مطمئنين الى أن مصادر تقييدهم وإلزامهم وتكليفهم هي مصادر لها هذا الحق ، وليس لأحد أن ينازعها فيه ، أو يتفلسف من سلطانه ، فتحقق من هذه الناحية الدعامة الثانية من دعائم التشريع والتسليف ، وتمتسك بالقوانين والأحكام التي شرعت على هذا الأساس هيبتها وقداستها .

هذا وقد شاع واستفاض على الألسنة في عصرنا الحاضر أن الأمة مصدر السلطات ، وأن من بين هذه السلطات سلطة التشريع ، فهي باسم الأمة ؛ فلا ينبغي أن يظن بهذا منافاة لما قلناه من أن التشريع لله ، فإن سلطة الأمة لا بد أن تتركز في دستور يرسم للعاملين باسمها مبادئ الحكم ومناهج التشريع ؛ ودستور الأمة الإسلامية الذي يرجع إليه ويبني الحكم والتشريع على أساسه هو الكتاب والسنة ، في دائرتيهما يكون النظر ، وعلى هدهما تسير الأمة في تنظيم شئونها ورسم سياستها وتشريعها ؛ فالأمة حقا هي مصدر السلطات ، ولكن في حدود ذلك الدستور السماوي الذي يجب أن يخضع له كل نظام وكل حكم ، وأن يرد إليه ما يكون من نزاع أو خلاف . والله المستعان ؟

### في وصف حصان

|                           |                         |
|---------------------------|-------------------------|
| ذو أولق تحت العجاج وإنما  | من صحة إفراط ذك الأولق  |
| تغرى العيون به ويفلق شاعر | في نعتة عفوا وليس بمغلق |
| قد سالت الأوضح سبيل قرارة | فيه ففترق عليه وملتي    |
| صافي الأديم كأنما ألبسته  | من سندس ثوبا ومن إستبرق |

الأولق : خفة العقل . وهو غير مذموم في الخيل . والعجاج : الغنير . والأوضح يراد بها الألوان .

# أسباب تأخر المسلمين

لفضيطة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الحميد عنتر  
الأستاذ بكلية اللغة العربية

وهذه أسباب التأخر من الدرجة الثانية . وأهمها ما يأتي :

السبب الأول - تفرق شمل المسلمين في أقطار الأرض إلى دويلات صغيرة ،  
وانحلال رابطتهم بزعة أركان الخلافة الإسلامية ، ونزوعهم إلى الشعرة العصبية  
وحمة الجاهلية ، وانقسامهم شيعا وأحزابا ، حتى لقد كانت هذه الدويلات  
الإسلامية في وقت ما تُربى على اثنتي عشرة دولة ! منها ست في الشرق تفرعت  
عن الدولة العباسية التي كانت إذ ذاك في طور الاحتضار . وهي : دولة بني بويه ،  
والدولة السلجوقية التركية ، ودولة آل سُبُكْتُكِين ، والدولة الطولونية بمصر ،  
والدولة الفاطمية ، والدولة الأيوبية . وكان الحكم في هذه الدول أغرب حكم  
عرف في تاريخ الإسلام ، إذ كان لكل حكومة منها سلطان : سلطة شرعية  
ظاهرية فقط ، ولها اسم الخلافة ، وتستمدّها من الخليفة العباسي برضاء : وسلطة  
حاكمة فعلية ، ولها اسم الملك ، وهي مستمدة من هذا الخليفة قهرا عنه <sup>(١)</sup> !  
وأكثر من ست دول في بلاد الأندلس العربية ، التي آل أمرها إلى أن تكون  
كل قبيلة منها دولة مستقلة ، لها حاكم مستقل : وقد اشتهر هؤلاء بملوك الطوائف .  
وفيهما يقول الشاعر :

وتفرقوا شيعاً فكل قبيلة فيها أمير المؤمنين ومنبر !  
وآخر هذه الدويلات دولة بني الأحمر التي كانت من أقوى الأسباب في زوال  
ملك العرب المسلمين من بلاد الأندلس .

وقد كان من أثر هذا التفرق المشؤم الذي منشؤه حب الرياسة والجاه والمال ،

(١) الدروس التاريخية للأستاذ الحضري بك ، رحمه الله

وعدم التنبيه إلى دسائس الأعداء - أن تضعض سلطان العرب ، وانطفأ مصباح الحضارة والعلوم الإسلامية في الشرق : وأن استسلمت بلاد الأندلس لأعداء العرب في الغرب ، بعد أن سطع نور المعارف ، وأشعت شمس العلوم الإسلامية في تلك الديار زهاء سبعة قرون من الزمان ؛ وأن تألفت على إثر سقوط دولة بني الأحمر محاكم التفتيش القيسية الوحشية ، وأخذت تتحكم في رقاب المسلمين وفي أعراضهم وأموالهم وعقيدتهم ، وتصدر أحكامها الجائرة الغاشمة التي يقشعر لها بدن المروءة ، ويندى لها جبين الإنسانية حياء وخجلا . ويندوب منها القلب حزنا وكدا ! .

يحدث كل هذا والمسلمون واجمون سامدون ، خاضعون لهذا الذل والهوان والفضيحة والعار ، لا يحركون ساكنا ، ولا يثأرون لحرمانهم التي انتهكت ، وأعراضهم التي هتكت ، ومساجدهم التي هدمت !!

### عبر التاريخ :

أيها القارىء ! لست أقصد بذكر هذه الحوادث الأليمة نبش الماضي السحيق ، وتقليب ذكرياته التي تُمض النفس وتسكدر الصفو ، وتجلب الهموم والاحزان ؛ وإنما القصد أن يعتبر العرب والمسلمون بما في الاتحاد من عز وقوة بأس ، وبما في التفرق والتقاطع من ضعف وخذلان ودمار . قال الله تعالى : واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، وقال عز شأنه : ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ربكم ، واصبروا إن الله مع الصابرين .

العرب والمسلمون اليوم : لئن انطوى ماضى العرب والمسلمين بما فيه من محن ورزايا وعبر وعظات ، ولئن فرقتهم شياطين السياسة الاستعمارية التي اغتروا بزخرفها وبهرجها زمنا طويلا - لقد تفتنوا اليوم لآلايب هذه السياسة وحيلها ، وأدركوا بالبرهان العملي الخطر الداهم الذي هم صائرون إليه : ذلك الخطر الذي يتستر بأسماء مستعارة : تارة باسم الحروب الصليبية ، وأخرى باسم تمدن الشرق ومحو الهمجية ، وثالثة باسم الصهيونية أو الدولة اليهودية ، ورابعة باسم الاشتراكية

أو توزيع العدالة الاجتماعية . هذا ظاهر الحال ، وما هو في الحقيقة إلا شبح الموت وغول الفناء ونذير الشر والفساد ، وضياح البلاد واستعباد الأولاد والأحفاد - لا قدر الله شيئاً من ذلك - . هذا ما أدركه العرب والمسلمون الآن ، بعد أن صهرتهم الحوادث ، ونبتهم التجارب ، وجمعتهم الشدائد ، فهبوا يدافعون عن فلسطين عرين العروبة ، وقدس الإسلام ، ومهد المسيح عليه السلام .

ومن الفأل الحسن نتيجة اتحاد العرب ، ذلك القرار الحازم الذي أصدرته حكومات الدول العربية في هذه الأيام ، وهو يقضى بمد يد المعونة الحربية الفعلية إلى عرب فلسطين المجاهدين ، بعد أن تخرجت الحال ، وسلمت مدينة حيفا وقبلها طبريا إلى انقواء الإرهابية الصهيونية ، وشرعت هذه القوات في مهاجمة يافا وعكا والقدس ، وعماً قريب ستسترد قوات العرب المجاهدين بمعونة الله ما بيد الصيونيين ، ثم تذكر عليهم وتدحرم وتمزق جموعهم شرمزق ، وتستولى على عقارهم وأموالهم ، وتطهر البلاد من خبثهم ورجسهم ، فتعيش فلسطين بعد ذلك عربية حرة ، يرفرف عليها علم العروبة الخاص بها ، وينعم أهلها تحت ظلال السيادة العربية ، سواء في هذا العرب المسلمون والمسيحيون ، واليهود المواطنون المسلمون الذين عاشوا مع إخوانهم في العروبة متمتعين بالحرية التامة والطمأنينة الشاملة ثلاثة عشر قرناً من السنين العربية ، ولم يحركهم للشر إلا أطماع ( الجويم ( <sup>(١)</sup> ) . هذه آمال كل محب لخير الإنسانية ، مبغض لشره الطامعين المعتدين الظالمين الآثمين ، وستتحقق هذه الآمال - إن شاء الله - بفضل اتحاد العرب ، وتعاون الشرق . وكل آت قريب <sup>(٢)</sup> .

(١) الجويم : اسم رمزي لليهود الصيونيين ، الذين يريدون الاستيلاء على العالم كله ، ويعتبرون كل من سواهم من الناس بهائم !! انظر مقالات الأستاذة نقولا الحداد عن اليهود في أعداد مجلة الرسالة : مارس وابريل ومايو سنة ٤٨ .

(٢) بعد كتابة ما تقدم دخلت الجيوش النظامية لجامعة الدول العربية أراضي فلسطين ، لتحريرها من أيدي الصيونيين ، فتقدمت تقدماً مظهر في جميع جهات القتال ، والمأمول أن يكتب النصر التام لهذه الجيوش المجاهدة في سبيل الله ، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم . ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكذبهم فيقلبوا خائبين ، !!

وبعد : فموضوع فلسطين درس وطني عملي للعرب : لئن أضرَّ بهم في ناحية لقد نفعهم أعظم النفع في نواح كثيرة . وقد بما قيل : المصائب تجمع القلوب المتفرقة . وإلى الله التكريم نضرع أن يديم الاتحاد والوفاق بين أعضاء جامعة الدول العربية ، وباقي أعضاء الجامعة الإسلامية ، ليتبوأ العرب والمسلمون مكانتهم في المجتمع الإنساني العالمي ، ويقيموا بوساطة تعاليم الإسلام الرشيدة الحكيمة أمة عظيمة بيدها مقاليد السعادة والرفاهية لجميع بني الإنسان على السواء . وما ذلك على الله بعزيز .

السبب الثاني - التهاون في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . المعروف كلمة جامعة ، ومعناه في عرف الشرع : الإحسان والرفق والخير . والمنكر ضد ذلك . وقد كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أخص صفات الأمة الإسلامية في عصرها الأول ؛ وبهما ترققت إلى أوج السعادة ومدارج السيادة . ويرجع الفضل في توالي الفتوحات الإسلامية في الشرق والغرب ، وانتشار الدين بين طبقات الأمم في آسيا وأفريقيا وبعض جهات أوروبا ، إلى هاتين الصفتين الحيويتين ، فلما تخلت عنهما الأمة الإسلامية ومال كثير من أفرادها إلى المداينة والمجاملة والمصانعة والتغاضي عن هفوات المسمى ، بل ربما يكال له المدح جزافا وبلا حساب ولا تقدير : لما حدث ذلك انحطت قيم الصالحين المصلحين ، وارتفعت أقدار المسيئين المفسدين ، فتولوا ما ليس من شأنهم ، وأشاعوا الفساد في بلاد الإسلام ، يعاونهم على ذلك أعداء الدين والعروبة ، فتتج عن هذه الحال السيئة ضعف المسلمين وتقهقرهم في ميادين العمل والإصلاح ؛ وهذا الذي حدث نتيجة المخالفة لقوله تعالى « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون » ، ولقوله عليه الصلاة والسلام « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » .

خطب أبو بكر رضي الله عنه ، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تَقْرَءُونَ هَذِهِ الْآيَةَ وَتَضَعُونَهَا عَلَى غَيْرِ مَوْضِعِهَا ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ، وَإِنَّا سَمِعْنَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

يقول : إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يده أوشك أن يعمهم الله بعقاب ؛ وإن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما من قوم يُعمل فيهم بالمعاصي ثم يقدرّون على أن يغيروا فلم يغيروا إلا يوشك أن يعمهم الله بعقاب » .

ومعنى هذا أن الأمر في قوله تعالى « عليكم أنفسكم » موجه إلى جميع أفراد الأمة الإسلامية بدون استثناء . يطالبهم فيه بإصلاح شئونهم وسلوكهم سبيل الهداية ، فإذا صلح أمرهم واهتدوا فلا يضرهم ضلال من ضل من الأمم الأخرى غير الأمة الإسلامية . هذا مراد الله تعالى من الأمر . ولكن كثيرا من الناس يفهم الآية على غير وجهها الصحيح ، فيزعم أن الأمر متوجه إلى بعض أفراد الأمة ، وأن هذا البعض إذا اهتدى فلا يضره ضلال البعض الآخر من أفراد هذه الأمة . وقد بين الرسول عليه السلام خطأ هذا الزعم ، وبينه كذلك خليفته أبو بكر من بعده . وبالرغم من هذا لا يزال سواد المسلمين متمسكين بهذا الزعم الباطل حتى يومنا هذا ؛ لذلك وقعوا فيما وقعوا فيه من تأخر وتقاطع ، وانحلال واضمحلال !

السبب الثالث - التواكل . وهو داء حديث من أدواء الأمة الإسلامية ، فشى في جميع ربوع الإسلام . ومعناه أن يهرب الشخص من الواجب عليه ويتشكل في قضائه على آخر ، ومنشؤه الكسل والخمول ، وحب الدعة والراحة .

وقد روج هذه الصفة الذميمة بين المسلمين دعاة الاستعمار الأوروبي ، وساعدهم على ذلك مناخ بلاد الإسلام ، وما منى به المسلمون من البعد عن دينهم ، والاستماع لكل ناعق ولو بالباطل !

تسرب هذا الداء إلى الحكام ، فأحجموا عن تشجيع الصانع الوطني ، ورضوا بأن يكون الشرق عالة على أوروبا في جميع لوازم حضارته ومعدات جيوشه ومقومات حياته !

وتسرب إلى موظفي الدواوين في بلاد الشرق ، فتعطلت مصالح الناس ، وكاد يقف دولاب العمل فيها ! وتسرب إلى المشتركين في عمل مشاع كالصناع والعمال

وخفراء الأمن ، فقل الإنتاج ، وقلت الثروة ، رترامى للناس شيع الفقر والمرض والجهل ، واختل نظام الأمن !

وتسرب الى أفراد الأسر الذين يشتركون في معيشة واحدة ، فنشأ عنه أن تبرم الولد بأبيه ، والأخ بأخيه ، والوالد ببنيه ، فهجر المتبرم أسرته حاقدا حائقا ؛ وبذا انحلت روابط الألفة ، ونمت عوامل التفريق والضعف .

وتسرب الى نفوس الشحاذين أقوياء الأبدان ، والى بعض طوائف الصوفية المرتزقة باسم التصوف ، فأمات فيهم روح العمل والنشاط ، وأصبحوا كالعضو الأشل في جسم الأمة الإسلامية ! ولوتنبه مجموع الأمة ولا سيما أولى الأمر منهم الى ما يرمى اليه قوله تعالى : **وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون** ، لماحدث من هذا كله شيء ؛ ولكن الله في خلقه شئون !

السبب الرابع - إهمال تربية البنات تربية دينية صحيحة . وهذا السبب يكاد يعد من الأسباب الجوهرية في تأخرنا .

ولا أريد أن أطيل في التعليل لهذه الدعوى ؛ فإن المعروف أن المرأة العربية الإسلامية كان لها حظ كبير من علوم الاسلام وثقافته الدينية في عهد الرسول عليه السلام وخلفائه الراشدين ، مكنتها من أن تساهم بقسط وافر في نهضة الأمة وبناء حضارتها ، وتوالى فتوحاتها واتساع رقعتها . ثم تغيرت الحال في أواخر عهد الدولة العباسية نخباً مصباح تعليم المرأة ، وأخذت تتمثر في حياتها الاجتماعية بين الجود والتجديد : الجود الذي حرّمها حتى من تعليم دينها تعليماً مشمراً ، والتجديد الذي قد يشول بها إلى فقد شخصيتها النسائية كربة بيت ومخرجة جيل . وإذا عرفنا أن النساء نصف الأمة أو أكثر ، وأنهن إذا صلحن صلح حال الأمة كلها ، كما قال شاعر النبيل حافظ إبراهيم طيب الله ثراه :

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعباً طيب الأعراق

وأنهن إذا جهلن أو فسدن ، غرقت الأمة في بحر من الجهل والفساد ، كما قال أيضاً :

من لى بتربية النساء فإنها فى الشرق علة ذلك الإخفاق !

إذا عرفنا ذلك سهل علينا إدراك ما حاق بأممتنا من الضعف والتأخر بإهمال تربية النساء ، وإدراك ما نكتسب من قوة وتقدم بالعناية بتربيتهن تربية دينية عصرية صحيحة .

السبب الخامس - جمود رجال الدين فى أقطار الإسلام ، وأعنى بهذا الجمود عدم مسايرة العصر فيما لا يضر الدين .

ومما لاشك فيه أنه قد حدثت فى العالم تطورات فى نظم الحياة وأساليب المعيشة ، وتطورات فى نظم القضاء وأساليب التعليم والتأليف ، وتطورات فى النظم الاقتصادية والاجتماعية ، وتطورات فى نظم التبشير بالدين والدعوة إليه ، وتطورات فى نظم الدفاع وأساليب الحرب . حدثت كل هذه التغيرات وغيرها فى غير بلاد العرب ، أعنى فى أوروبا ، ثم فى أمريكا ، فكانت نتيجةها ما شهده العالم أجمع من القوة والرقى الماديين ، والتسلط على جميع بلاد العرب بل على جميع بلاد الشرق الإسلامى . فإذا كان موقف رجال الدين المسلمين من هذه التطورات ؟ الحق أنه كان موقفا غير مشرف ، إذ من المعروف أن علماء الدين ورجاله كانوا قدوة الأمة فى العصور الحالية ، فكان عليهم أن يوجهوها إلى كل صالح مفيد ، وأن يكونوا فى طليعة الداعين إلى الأخذ بكل تطور لا يمس عقيدة من عقائد الدين ، ولا يبطل حكما من أحكامه التى علمت منه بالضرورة ، ولا سيما فى الوقت الذى رأوا فيه تيار الغرب يحرف الشرق ، ويغزوه بعاداته الأوروبية ، وقوانينه الوضعية ، ومبادئه الاستعمارية ، واختراعاته الحديثة ، ودسائسه المسبوكة التى طوحت بأمثال السيد جمال الدين الأفغانى ، والأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده والوطنى الغيور مصطفى باشا كامل . ومما يوجب الأسف الشديد أننا اضطررنا أخيرا إلى مسايرة العصر فى أشياء كثيرة ، ولكن بعد فوات الفرصة ، وبعد أن نكبنا فى عاداتنا وأخلاقنا وديننا ووطنيتنا ، فاللهم تداركنا بعفوك ورحمتك ، وقبض لهذه الأمة من يعيد إليها مجدها الغابر وعزها القديم ! .

# ابن حزم

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الله المراغي  
مدير قسم المساجد بوزارة الأوقاف

## نفسية ابن حزم في تأليفه :

أسلفنا القول في تاريخ ابن حزم أنه اغتنم فرصا من حياته فألف في شتى العلوم التي نبغ فيها . والباحث في هذه المؤلفات يستشرف نفسية ابن حزم يتدفق تيارها في جداولها التي تنساب حاملة آراءه وعواطفه ، وشخصيته وشاعريته ، واستقلاله في رأيه ، وإيمانه بما يعتقده ، وتمصبه لمذهبه ، وعدم مبالاته بما يشيره خصومه من تقع يغير أفق الحياة حوله .

وعندى أن الوقوف على الحبي من نفسية ابن حزم مستطاع من قراءة وتبصير ما به في كتبه ، وليس أصدق في الاستدلال على تفكير المرء وما يخالج أحاسيسه مما يدبجه قلبه إذا عرف بالإيمان وثبات اليقين ؛ ولا ينكر أحد على ابن حزم أنه كان مؤمنا بما يعلنه ، قوى اليقين بما يظهره ، ثابت العقيدة بما يكتبه ، ينيء مظهره على ما يضمه : فقد كان شافعيًا متحمسًا لمذهبه ؛ لأنه كان مؤمنا به ؛ فلما تحول إلى مذهب الظاهرية كان شديد التعصب له ؛ فهل كان مرآيا في أولاه أو مغرضا في أخراه ؟ لقد رُمى ابن حزم بذلك من بعض خصومه الألداء ، مستدلين على ذلك بأن لسانه كان سليطا على الأئمة ، ومنهم الشافعي الذي كان يدين بمذهبه ويدافع عنه .

وإذا كان بعض الناس يرى أن القلم يستطيع أن يكتب غير ما يعتقد الكاتب لشهوة سائجة أو لغرض خاص ، فإن هذا النوع من الكتابة لم يكن مألوفًا في عهد ابن حزم إلا قليلا ، ولا نستطيع أن نتصور هذا الاتهام في مؤلف يكتب في علوم الحديث ، والكلام ، والأصول ، والتفسير ، والفقه .

ولقد كتب ابن بشكوال والذهبي والمقري وابن الأبار وابن خلدون وجولدسيهر وهورتن وياقوت وابن خلكان وابن القفطي والضبي وعبد الواحد المراكشي وابن خاقان وغيرهم من المسلمين وغير المسلمين ، من ناقدين ومعارضين ، ومؤيدين ومعارضين ، فلم يستطع أحد منهم أن ينكر على ابن حزم أنه رجل عقيدة

ودليل ، ورجل رأى وبرهان : وسواء أكان مصيباً أو مخطئاً فإنه ليس خاطئاً إن خافه التوفيق : وشتان بين مخطيء لا يخالفه الصواب ، وبين خاطيء يعتمد الخطأ ويكتب على غير هدى قاصداً ، ويضلل الناس عامداً ؛ وليس ابن حزم من النوع الثالث . ولا يمكن لمنصف أن يقول بذلك مهما غلا في نقده .

والحق أنه أحد رجلين : مجتهد مصيب يخالفه الصواب فله أجران ، أو مجتهد يخطيء حيناً فيكون له أجر ويصيب حيناً فيكون له أجران . هذا رأينا فيما اطلعنا عليه من مؤلفات ابن حزم ، وفيما تضمنه من آراء ، يوافقنا عليه المنصفون من نقاده ، ولا نبالي أن يخالفنا فيه المغالون من حساده .

مؤلفاته :

يمول المؤرخون : إن من بواكير مؤلفاته كتاب : طوق الحمامة في الألفة والالاف ، ألفه ابن حزم في شاطبة سوالى سنة ٤١٨ هـ على ما يقوله بعض الباحثين ، أوسنة ٤١٧ هـ على ما يقوله ابن الأثير .

والمطلع على هذا الكتاب يرى ابن حزم مثلاً لصفاء العاطفة ، ومرآة لدقة الأحاسيس ورقة المشاعر ؛ قص فيه من تجاربه وتجارب أهل عصره ، وأعرب عن نظراته العميقة ووجدانه المتغلغل بين الجوانح ، ما يرضى لنا جوانب الحياة في عهده ، وهو أمر لا يعرفه إلا القليل ، ولا يدرك من سره إلا النزر اليسير .

ويبدو أن المؤلف تكلم في هذا الكتاب على الألفة والمحبة والحب والعشق على نحو يتسق مع تفكيره ، وصاغ كلامه في أسلوب غنى فيه بإظهار شاعرية نفسه ، أو هي قد ظهرت على الرغم منه ، كما روى لنا فيه أشعاراً من نظمه الذى عرضنا لونا منه فى المقال السابق . وإن عنوان الكتاب يهذى القارىء الى موضوعه ، ويأخذ بيده الى أمر لا تخلو نفس من الحديث فيه أو التطلع فى أفقه أو التفكير فى مآله .

ومن مؤلفاته : رسالة فى فضل الأندلس ، التى كتبها وأهداها الى صديقه أبى بكر محمد بن إسحاق ، وفيها يتكلم على تصاريى مسلمى الأندلس المتقدمين ؛ ويظهر فى هذه الرسالة تحول ابن حزم من مذهب الشافعية الى مذهب الظاهرية . وإذا بحثنا فى تاريخ تأليف هذه الرسالة وجدنا أنها قد تكون معاصرة أو قريبة العهد من تاريخ تأليف كتابه : طوق الحمامة . .

ويقول المقرئ وابن الأبار : إن ابن حزم ألف رسالة فى فضل الأندلس إجابة لرغبة حاكم قلعة البوت . .

ومن مؤلفاته في التاريخ كتابه المسمى « نبط العروس » ، في تواريخ الخلفاء وكتاب « جمهرة الأنساب أو أنساب العرب » ، الذي عني بآليفه حوالي سنة ٤٥٠ هـ . ولهذا الكتاب وزن كبير في نظر المؤرخين ، نوه عنه ابن خلدون في مقدمته في مواضع كثيرة عند تعرضه لأنساب العرب والبربر في المغرب والاندلس ، واتخذ بعض المؤرخين الأجانب سنداً في البحث عن تاريخ الحموديين والتجيبين والأمويين ، مما يدل على أن لأبحاث ابن حزم قيمة كبيرة في نظر الأجانب . ومن مؤلفاته في علم الأصول كتاب « الإحكام في أصول الأحكام » . وهو كتاب يبين شخصية ابن حزم الى حد كبير ومدى بعيد ، وقد طبعته مكتبة الخانجي في ثمانية أجزاء .

وإذا كان الكتاب يعرف من عنوانه ، فإن مقدمة هذا الكتاب تدل على الوجهة التي يهدف إليها ابن حزم من تأليفه ؛ فتراه يقول في هذه المقدمة عن شرائع الإسلام : « إن الله أودع تلك الشرائع في الكلام الذي أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتبليغه إلينا وسماء قرآنا ، وفي الكلام الذي ألقاه رسول الله صلى الله عليه وسلم غير قرآن ، وألزمنا في كل ذلك طاعة نبينا عليه السلام ، وألزمنا تتبع تلك الشرائع في هذين الكلامين ، لنخلص بذلك من العذاب ، ونحصل على السلامة والحظوة في دار الخلود . ووجدناه تعالى قد ألزمنا ذلك بكتابه المنزل . وما كان المؤمنون لينفروا كافة ، فلو لا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ، فوجب علينا أن ننفر لما استنفرنا له خالقنا عز وجل ، فوجدناه قد قال في القرآن الذي قد ثبت أنه من قبله عز وجل والذي أودعه عهده اللازمة إلينا ، يأياها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فإن تنازعتم في شئ فردوه الى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » .

قال ابن حزم : فنظرنا في هذه الآية فوجدناها جامعة لكل ماتكلم الناس فيه أولهم عن آخرهم مما أجمعوا عليه واختلفوا فيه من الأحكام والعبادات التي شرعها الله عز وجل لهم لا يشذ عنها شئ من ذلك . فكان كتابنا هذا كله في بيان العمل بهذه الآية ، وكيفية بيان الطاعتين المأمور بهما لله تعالى ولرسوله عليه السلام . وهذا هو جماع الديانة كلها .

من هذه العجالة نستبين أن ابن حزم يرى أن الأدلة الشرعية هي :

- ١ - القرآن المنزل من عند الله .
  - ٢ - الكلام الذي أنطق الله به رسوله وسماء وحيا غير قرآن .
  - ٣ - الإجماع الذي عبرت عنه الآية بأنه طاعة أولى الأمر .
- أما القياس الذي رأى أكثر الفقهاء أنه دليل من الأدلة الشرعية ، فإن ابن حزم ينكره ويسفه من يقول به ويرميه بالجهل ، ولا يتخرج عن الإقذاع في النقد؛ الأمر الذي أخذه عليه خصومه ، وبغضه عند كثير من الناس .

يقول ابن حزم : ظن قوم بجعلهم أن قولنا بالدليل خروج منا عن النص والإجماع ، وظن آخرون أن القياس والدليل واحد : فأخطئوا في ظنهم أخش خطأ . ثم يقول في موضع آخر : وما هنا خلط أصحاب القياس فسموا الدليل علة والعلة دليلا ففحش شامطهم ، وسموا حكمهم في شيء لم ينص عليه بحكم قد نص عليه في شيء آخر دليلا ، وهذا خطأ ، بل هذا هو القياس الذي ننكره ونبطله .

ويقول في موضع آخر ، في شأن المخالف له فهو كاذب آفك مفتر . وهكذا تلازمه هذه الظاهرة في ردوده على من لا يشاركه الرأي ، فيقول عن رواية من روايات أهل الكوفة بشأن إجماع أهل المدينة ، هذه رواية ليس في رواية أهل الكوفة أثبت منها ، وهذه زراية كنا نتمنى أن يتزده عنها لسان ابن حزم وقلبه ، فإن السباب لا يدل على قوة الحجة ؛ وقد علمنا القرآن الكريم أدب الخطاب والجدال والمناقشة ، وطالبنا أن نجادل أهل الكتاب بالتى أحسن .

وغريب من رجل في علم ابن حزم وأدبه يملك من أدب اللغة المختلفة الأساليب وشتى العبارات ، ألا يتخير لمصطلحاته وحواره أعف الالفاظ والأقوال . ولقد وضع في مقدمته أسماء المصطلحات التي تدور بين أهل النظر في أبحاثه وذكر منها : الحد والرسم والعلم والاعتقاد والبرهان والدليل والحجة والدال والاستدلال والشغب والتقليد والإلهام . وقد أراد بالشغب السفطة ، فهو حتى في مصطلحاته ينتقي لبعض المعاني لفظا كان في استطاعته أن يستبدل به لفظا ليس من أقذاع ولا ينال من كرامة المجادل .

ونحن لا نوافق ابن حزم في هذا المسلك ، وإن كنا نجل فيه كرامة العلم وغزارة المادة . وللقول بقية نستوفي بها ترجمة ابن حزم ، إن شاء الله .

# حول كتاب الرد على النحاة

## لابن مضاء القرطبي

أفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد عبد الخالق عضيمة  
المدرس بكلية اللغة العربية

أحمدُ للأستاذ شوقي ضيف جهده المشكور بنشره كتاب الرد على النحاة  
لابن مضاء ، فقد مياً المهتمين بالدراسات النحوية الاطلاع على لون من ألوان  
النقد لفنهم .

كما أشكر له جهده في تقديم مشروع لتنسيق النحو وتذليل صمابه .  
وأجمل حديثي فيما يأتي :

طاف نقد ابن مضاء للنحو بأمور شكلية ، فلم ينفذ إلى جوهر النحو ولبابه ،  
فيبرز لنا ما في قواعده من قصور ، وما وقع النحويون فيه من تقصير .

لم يصل النحويون الى قوانينهم عفوا صفوا ، وما واقفهم رهواسهوا ، وإنما  
كان ذلك ثمرة جهود متتابعة متواصلة ، وصبر على عناء الاستقصاء والاستقراء  
لكلام العرب شعره ونثره ، وسماع من الفصحاء ، وإنعام النظر في كتاب الله ؛  
وبعد أن استقامت لهم هذه القوانين شغلوا أنفسهم بالتعليل لها وبيان أسرارها .  
فيجمل بمن يتصدى للرد على النحويين أن يبين أولاً : عدم اطراد هذه  
القوانين وأنها لا تنظم كلام العرب . لم يفعل هذا ابن مضاء ، وكان منه اعتراف  
في مقدمة كتابه بأن النحويين بلغوا الغاية فيما أرادوا ؛ قال : « وقد وضع النحويون  
صناعة النحو لحفظ كلام العرب من اللحن وصيائته عن التغيير ، فبلغوا من ذلك  
إلى الغاية التي أموا ، وانتهوا إلى المطلوب الذي ابتغوا » .

دار حديث ابن مضاء في كتابه على أمور ثلاثة هي : العوامل ، التعليقات ،  
التمارين الفرضية . وسأبين بإيجاز مدى اعتبار النحويين لهذه الأمور :

العوامل في صناعة النحو بمثابة الأمانة والدلالة ، تهدي الناظر في الكلام العربي إلى مراعاة ما تقتضيه من حركات الإعراب . قال ابن الأنباري في الإنصاف :

« العوامل بالإجماع إنما هي أمارات ودلالات ، والأمانة تكون بعدم شيء كما تكون بوجود شيء ؛ ألا ترى أنه لو كان معك ثوبان وأردت أن تميز أحدهما من الآخر فصبغت أحدهما وتركت صبغ الآخر ، لكان ترك صبغ أحدهما في التمييز بمنزلة صبغ الآخر ، ؟

فتصوير ابن مضاء للعوامل تصوير مبالغ فيه ، وقد اعتمد على بعض الأمثلة التي هي مثار اختلاف بين النحويين . فليست للعوامل هذه الهيمنة على كلام العرب تقبل بعضه وتنكر بعضه ، إنما يبحث النحويون عن العامل بعد سماع النص العربي . قال الرضي في شرح الكافية ج ١ ص ٢٠٨ : « وقال بعضهم : المستثنى منصوب بأستثنى ، كما أن المنادى منصوب بأنادى ، وإلا وحرف النداء دليلان على الفعلين المقدرين . وقد اعترض عليه بأنه يلزم منه جواز الرفع بتقدير أمتنع . ولا يلزم ذلك ؛ لأننا نعمل مائتة وورد من كلام العرب ، ولو ورد الرفع لكنا نقدر أمتنع ونحوه : ألا ترى أنه يجب النصب في إياك والأسد بتقدير بعد ونحوه ؟ ولو ورد الرفع نحو أنت والأسد لكنا نقدر أبعث أنت والأسد ونحوه .

\*\*\*

وقد راعى أن ينسب ابن مضاء إلى أبي الفتح بن جنى مخالفته النحويين بإنكار العوامل ، ويستند في دعواه إلى نص مبتور ، ثم يقره على هذا الأستاذ شوقي دون أن يكلف نفسه الرجوع إلى الخصائص فيجد كلام ابن جنى صريحاً في أن العامل سبب للعمل ، وهو الذي يحمل المتكلم على أن يراعى ما يتطلبه من حركات الإعراب . ويتضمن تعليلاً لتقسيم النحويين العوامل إلى لفظية ومعنوية (الخصائص ١/ ١١٤) . ولو تجاوزنا هذا الموضع من الخصائص وألقينا نظرة عابرة لوجدنا أحاديث عن العوامل في غير موضع .

في صفحة ١٠٧ تعرض ابن جنى لأقوال النحاة في ناصب المفعول به ، ورجح أن الناصب له هو الفعل وحده ، وضعف رأى من يقول إن الناصب هو الفاعل

أو الفعل مع الفاعل : كما تحدث عن عمل لا الزائدة في صفحة ٣٠٤ في قول الشاعر :  
 لو لم تكن غطفان لا ذنوب لها إذن للام ذوو أحسابها عمرا  
 وتكلم عن عوامل مختلفة في هذه المواضع ١١٢، ١٣١، ١٧٢، ١٩٣، ٣١٩،  
 ٣٢٤ : وتذكر كتب النحو المختلفة أن ابن جني زاد عوامل لم يعترف بها جمهور النحاة :  
 المنادى عنده منصوب بحرف النداء لنيابته عن الفعل المحذوف :

وما الزائدة هي العاملة الرفع والنصب في نحو قول الشاعر :  
 أبا خراشة أما أنت ذا نفر فإن قومي لم تأكلهم الضبيع  
 لنيابتها عن كان المحذوفة .

وأجاز أن يتعلق الظرف والجار والمجرور بحروف النفي .  
 نقل ذلك عنه ابن هشام في المغنى ، والبغدادى في خزنة الأدب وغيرهما .  
 فهل يقال بعد هذا إن ابن جني سبق ابن مضاء في تزييف نظرية العامل ؟ .

دفع النحويين إلى البحث عن متعلق الظرف والجار والمجرور نظام الأسلوب  
 العربى : وجدوا أنه قد يسبق الظرف فعل أو اسم فيه معنى الفعل يرتبط به الظرف  
 ومعناه خاص ، فقالوا : المتعلق الخاص يجب ذكره ولا يحذف إلا عند وجود  
 القرينة : تقول : هذا الكتاب مطبوع في مصر ، ولو حذفت المتعلق اختلف المعنى .

ودليلهم على تقدير المتعلق العام ورود ذكره في قول الشاعر :  
 لك العز إن مولاك عز وإن يهن فأنت لدى بجوحة الهيون كائن  
 ولما كانت الأساليب الفصيحة خالية من ذكره ، أوجب النحويون حذفه ،  
 فلا يصح أن تقول : منزلنا المكان بشارع كذا ، كما يجرى ذلك على السنة العامة .  
 فالبحث عن المتعلق بحث يتصل بسلامة الأسلوب وفصاحته . وقد حض ابن مضاء  
 في كتابه على البحث في المسائل التى تفيد نطقا ، وإن نادى بالانصراف عن البحث  
 فى متعلق الظرف .

وتعيين المتعلق إنما يحدده المعنى : فقد يوجد الفعل قبل الظرف ولا يصح  
 تعلقه به ، كقول ابن دريد :

إن امرأ القيس جرى الى مدى فاعتاقه حمامه دون المدى

لو علق الجار والمجرور بالفعل « جرى » مع بقاءه على معناه ، لناقض صدر البيت مجزه ، وهو متعلق بحال محذوفة ، أى جرى قاصدا الى مدى .

الخطب في التعليقات النحوية أمون وأيسر . سأل سائل الخليل فقال له : أعن العرب أخذتها أم اخترعتها من نفسك ؟ فقال : إن العرب نطقت على سجيته وطباعها وعرفت مواقع كلامها وقامت في عقولها علله وإن لم ينقل ذلك عنها ، وعلمت أنا بما عندي أنه علة لما علته به : فإن أكن أصبت العلة فهو الذى التمس ، وإن تكن هناك علة غير ما ذكرت فالذى ذكرته محتمل أن يكون علة له ، ومثلى فى ذلك مثل حكيم دخل دارا محكة البناء عجيبه النظم والأقسام ، وقد صحت عنده حكمة بانها بالخبر الصادق والبراهين الواضحة ، فكلمها وقف هذا الرجل الداخل الدار على شيء منها قال : إنما فعل هذا هكذا لعله هو كذا ، لعله سنحت له وخطرت ؛ فجائز أن يكون الحكيم الباني للدار فعل ذلك للعلة التى ذكرها هذا الذى دخل الدار ، وجائز أن يكون فعله لغير تلك العلة ، إلا أن ما ذكره هذا الرجل محتمل أن يكون علة ... ثم يقول : فإن صحت لغيرى علة لما علته من النحو هو أليق بما ذكرته بالمعلول فليات بها .

وقال أبو الفتح فى الخصائص ٩٠/١ : اعلم أنا مع ما شرعنا به فأوضحناه ، من ترجيح علل النحو على علل الفقه وإلحاقها بعلم الكلام . لا ندعى أنها تبلغ قدر علل المنكامين ، ولا عليها براهين المهندسين .

ويسر النحويين اعتبار ابن مضاء دراسة علل النحو بمنزلة دراسة اللغات والأدب والتاريخ ، حيث يتناول فى كتابه : « من المعارف التى لاتدعو الى جنة ولا تزجر عن نار » : اللغات والأشعار ، ودقائق علل النحو ، ومسلات الأخبار .

وعندى أن صنيع النحويين فى العوامل والتعليل شبيه بما تصنعه الحكومات والهيئات فى تميزها ؛ تصوغ مواد القانون ثم تردف ذلك بمذكرة تفسيرية إيضاحية تنطوى على بيان وجوه الحكمة فى التشريع وملائمته لما شرع له .

\*\*\*

وأنتقل الى الحديث عن مشروع التنسيق الذى وضعه الدكتور شوقي ضيف .

(١) ما يراه الاستاذ من وضع باب للفعل العام ينتظم الأفعال الناصبة

وأحوال المضارع إعراباً وبناءً ، وأحوال الماضي والامر - موجود في الكتب التي بين أيدينا ؛ سار على هذا النظام جار الله في المفصل ، وابن الحاجب في الكافية ، تكلمنا عن الأسماء ثم الأفعال ثم الحروف . وشرح المفصل لابن يعيش وشرح الكافية معروفة متداولة .

(٢) هل يغنينا إدماج بعض الأبواب في بعض ، كإدماج الاختصاص في باب التمييز ، والإضافة في التوابع ، والمنادى ولا النافية للجنس في الممنوع من الصرف ، عن دراسة خصائص أسلوب كل منها وتفهم معانيها لتعرف نظائرها وأشباهها في كلام العرب ؟ .

(٣) أليكون حكماً على الخبر بأنه يكون منصوباً في نحو : ضربني العبد مسيئاً ، وفي نحو : أبا خراشة أما أنت ذا نفر ، ويكون مجروراً في نحو : وما ربك بظلام للعبيد ، مما يهون مسائل النحو ويرفع عنا إصرها ؟

لو أقرنا الأستاذ شوقي على أنه لا بد من تحديد مواقع كل حالة لكان الخلاف بينه وبين النحويين لا يتجاوز مجرد التسمية .

كيف نقول للبتيدي : إن الخبر ينصب بعد أتما ونرسل الكلام إرسالاً ، فيقع على أما من نوع آخر بعدها المبتدأ والخبر مرفوعان ، وبعدها الجار والمجرور : « وأما بركة ربك فحدث » وبعدها المفعول به : « وأما اليتيم فلا تقهر » ، وبعدها الجملة الشرطية ...

وكيف يغني قولنا : المبتدأ يكون مجروراً نحو « وما ربك بظلام للعبيد ، دون أن نفرق بين هذا الخبر المجرور بحرف جر زائد والمجرور بحرف جر أصلي ، وكيف ساغ العطف على الأول بالنصب في نحو قول الشاعر :

معاوى إننا بشر فأصبح فلسنا بالجمال ولا الحديد

كذلك معرفة موقع الجملة من الإعراب يترتب عليها ضبط ما بعدها في بيت كثير :

وما كنت أدري قبل عزة ما البكا ولا موجعات القلب حتى تولت

(٤) بيان موقع كم من الإعراب أمر لا بد منه ، لما يتبع ذلك من اختلاف في المعنى . فبيت الفرزدق :

كم عممة لك يا جرير وخالة فدعاء قد حلبت على عشارى  
روى برفع عمه ونصبها وجرها ؛ فرواية الرفع تفيد أن لجرير عمه واحدة وخالة  
واحدة قد حلبتا للفرزدق عشاره مرات كثيرة أو حلبًا كثيرًا ، وكم ظرفية أو دالة  
على الحدث ؛ وروايتا الجر والنصب تفيدان أن لجرير عمات كثيرات وخالات  
كثيرات أجيرات قد حلبن للفرزدق عشاره ، وكم دالة على ذات .

كذلك عرض النحويون لبيان الفرق بين النصب على الاختصاص والرفع  
على الخبرية في نحو قول الشاعر :

إنا بنى نهشل لا ندعى لأب عنه ولا هو بالأبناء يشرينا  
كما بينوا أى المعنيين أبلغ من الآخر .

فهل يطلب منا الدكتور الأديب أب نعرض عن مثل هذه الدراسات  
ولا نقبل على تعرف دقائقها وتحصيل أمثالها ؟

وكيف يصح بعد هذا أن يقال : إن صناعة النحو صناعة لفظية تغفل شأن  
المعاني وتغنى بالالفاظ ؟

أنا لا أنكر تشعب قواعد النحو ودقتها ؛ ولكنى أقول كما قال الدكتور  
عبد الوهاب عزام بك في بعض كتبه : « قيل إن لغتنا صعبة بهذه المفردات وهذه  
التركيب والأوزان ، وإنها تكاد تأتى على دارسها وتعجز طالبها ، وهذا حق  
لاندفعه ، وإن عني عيباً فلا تنكره ، ولكنه ليس من نقصان في خلقها أو اختلال  
في أبنيتها أو عجز في موادها وأوزانها ، ولكنه نتيجة التطور الكامل ، والنمو التام ؛  
فأدنى الأشياء في هذا العالم أيسرها وأقلها تركيباً ، والكمال يصحبه التركيب  
والتفصيل والإشكال والإعصال ... الخ

# حى بن يقظان

لحضرة الأستاذ الدكتور أحمد فؤاد الاهوانى

مدرس الفلسفة بجامعة فؤاد الاول

هذه قصة صغيرة ، كتبها الفيلسوف الأندلسى أبو جعفر بن طفيل . وهى على صغر حجمها بالغة الأهمية من الناحية الفلسفية ، حتى لقد بلغ من قيمتها أن نقلت فى القرون الوسطى إلى اللغة اللاتينية ، وترجمت إلى كثير من اللغات الأوروبية الحديثة ؛ ولم يألف المسلمون التعبير عن الآراء فى شكل قصصى ؛ لهذا كانت رسالة حى بن يقظان من الطرافة بمكان عظيم ، لندرة هذا الأسلوب فى التأليف .

وهناك أسباب كثيرة تدفع المفكرين إلى صياغة أفكارهم فى ثوب قصصى ؛ منها التشويق ، ومنها تصوير المسائل فى صورة الحقيقة والواقع ، ومنها الهرب من استبداد الحكماء ، والخوف من ذوى السلطان .

وأكبر الظن أن ابن طفيل ركب متن القصة خشية على حياته من الاتهام بالكفر والزندقة والفلسفة ، وكان الاشتغال بالفلسفة فى عصره جريمة لا تغتفر ، وجناية على الشرع والدين ، يدفع الفلاسفة ثمنها ظالما ، إذ تمزق كتبهم ، ويرجون فى أعماق السجون ، ويضطهدون فى أموالهم وأهلهم ، وكان التعذيب الشنيع ، ثم الموت حرقاً هو عقاب المتفلسفين فى أوروبا .

والحنة التى وقع فيها أبو الوليد بن رشد من هذا القبيل .

ولقد تصدى كثير من الفقهاء ورجال الدين للفلاسفة ، وزيفوا آراءهم ، وبينوا ما فيها من مخالفة للدين ، وما ترمى إليه من كفر ، غير أن أقوى هؤلاء جدلا

وأبرزهم حجة هو أبو حامد الغزالي في كتابه تهافت الفلاسفة ، فانبرى له الفلاسفة يردون عن أنفسهم هذه التهمة المنسكرة ، لأن ثبوتها يقضى عليهم بالإعدام ، وهو حكم الدين على المشركين . ورد بعضهم ردا صريحا كما نقرأ في تهافت التهافت لابن رشد ، وغمز بعضهم الآخر الغزالي ولم يلجأ إلى التفنيد .

قال ابن طفيل في هذه الرسالة : « وأما كتب الشيخ أبي حامد الغزالي فهو بحسب مخاطبته للجمهور يربط في موضع ، ويحل في آخر ، ويكفر بأشياء ثم يتحللها ، ثم قال بعد أن عرض بمذهبه وكتبه وغموض ما جاء فيها ما يأتي « وقد ذكر ( يريد الغزالي ) في كتاب الجواهر : أن له كتباً مضموناً بها على غير أهلها ، وأنه ضمنها صريح الحق ولم يصل إلى الأندلس في علنا منها شيء . بل وصلت كتب يزعم بعض الناس أنها هي تلك المضمون بها ، وليس الأمر كذلك . وإذا كان الغزالي لم يعجبه لتقلبه في الرأي ، وشك في الاعتقاد الموروث واستعمال الرمز والإشارة دون صريح الحق ، فكذلك لم يعجبه أبو نصر الفارابي لأن ما وصل إلى الأندلس من كتبه أكثرها في المنطق ، وما ورد منها في الفلسفة كثيرة الشكوك ، ومن جملة ما ذكره مخالفا للشرع أن السعادة الإنسانية إنما تكون في هذه الحياة الدنيا ، مما أياس الخلق جميعا من رحمة الله تعالى ، وصير الفاضل والشرير في رتبة واحدة إذ جعل مصير الكل إلى العدم ، وهذه زلة لا تقال ، وعثرة ليس بعدها جبر . هذا مع ما صرح به من سوء معتقده في البوة وأنها بزعمه للقوة الخيالية خاصة ، وتفضيله الفلسفة عليها ، إلى أشياء ليس بنا حاجة إلى إيرادها . »

ولم يسلم أبو بكر بن الصائغ من نقد ابن طفيل ، وبعد أن قدره قدره وقال عنه إنه أحذق الآخرين نظرا وأقربهم إلى الحقيقة وأثقفهم ذهنا وأصدقهم رؤية ، غير أنه شغلته الدنيا حتى اخترمته المنية قبل ظهور خزان علمه وبث خفايا حكمته ، وأن أكثر ما يوجد له من التآليف غير كاملة ، وأن ترتيب عبارته في بعض المواضع من كتابه رسالة الاتصال على غير الطريق الأكمل .

أما الفيلسوف الذي يبدو أنه سلم من لسانه وماآخذه ، فهو الشيخ الرئيس

ابن سينا ، ومع ذلك فقد نبه الناس إلى أن كتاب الشفاء إذا أخذه التمارىء على ظاهره دون أن يتنبه لسره وباطنه ، لم يوصل به إلى الكمال ، وأن من أراد الحق الذى لاجمجة فيه فعليه بكتابه فى الفلسفة المشرقية .

فلما رأى ابن طفيل غموض التأليف ، وخروجها عن سواء السبيل ، أراد أن يكتب شيئاً يجيب به عن سؤال ذلك الأخ الكريم الذى طلب منه أن يبت إليه ما أمكنه بثه من أسرار الحكمة المشرقية التى ذكرها ابن سينا ، وقال مخاطباً ذلك السائل « وأرجو أن أصل من السلوك بك على أقصد الطريق وآمنها من الغوائل والآفات ، . فكتب قصة حى بن يقظان وأبسال وسلامان .

فما هو ذلك الطريق المستقيم ، وما هى تلك الغوائل والآفات ، التى يخشاها ابن طفيل ويحذر منها .

الحق أن الآفات آفة واحدة ، هى تهمة الكفر والخروج على الشرع الخفيف . أما الطريق ، فهما فى الواقع عند ابن طفيل طريقان : طريق الحكمة ، وطريق الشريعة ، وكلاهما يوصل إلى الحق ، والحق هو معرفة الله .

ولم يكن ابن طفيل أول من تعرض للتوفيق بين الفلسفة والدين ، ولم يكن آخر من كتب فى هذا الموضوع . قال أصحاب رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء ، الذين كتموا أسماءهم : إنهم لا يعمدون علماً من العلوم ، ولا يتعصبون لمذهب من المذاهب ، ولا يهجرون كتاباً من كتب الحكماء والفلاسفة ، كما يعتمدون على كتب الأنبياء وما جاءوا به من التنزيل . وجعل أبو الوليد بن رشد فيلسوف قرطبة عنوان كتاب من تأليفه ، وهو من أجملها وأهمها ، « فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال » . فالصلة إذن بين الفلسفة والدين ، أو بين الحكمة والشريعة ، هى المسألة التى شغلت بال الفلاسفة فترة طويلة من الزمان . ومحور السؤال يدور على هذه القضية : هل يكتفى بالشرع وما جاء فيه ، ويؤمن الناس بالله وأوامره ونواهيه حسب ما نزلت به الكتب السماوية على لسان الأنبياء والمرسلين ، أو يلجأ الناس إلى عقولهم يهتدون بها إلى معرفة الخالق والتميز بين الخير والشر ؟

هما طريقان : طريق السمع أو الشرع أو النقل ، وطريق الفكر أو العقل .

وقد جمعت بعض المذاهب بين الطريقين ، وقدمت أحدهما على الآخر . فالمتكلمون مثلاً يقدمون العقل على النقل ، والأشاعرة يقولون : معرفة الله بالعقل تحصل ، وبالسمع تجب ، فيقدمون الشرع على العقل .

ويريد الفلاسفة أن يقولوا إن اتباع طريق العقل يوصل الى معرفة الله ، كما يوصل طريق الشرع ، فلا تنافي بينهما . وهنا موضع الآفة ، لأنه إذا صح الاهتمام الى الله بالعقل فما وجه الحاجة الى الشرائع ؟

ونعود الى ابن طفيل فنجدّه يصور في قصته أن حى بن يقظان نشأ في جزيرة نائية فشب وحيداً يرضع من ابن غزالة الى أن اشتد ساعده وبلغ مبلغ الشباب والرجولة ، فنظر في أحوال الكائنات التي تحوطه واهتدى الى أسرار الجماد والنبات والحيوان كل ذلك بغير معلم ؛ ثم انعطف على نفسه فكشف سر الروح واهتدى الى العقل أداة المعرفة ، وتبين أن جوهره يخالف للبادية المحسوسة ، بل مفارق لها ، فانصرف عن الجسم واتصل بالروح الأعلى ، « وفنى عن ذاته وعن جميع الذوات ولم ير في الوجود إلا الواحد الحى القيوم » فكأنه وصل الى الله بالمشاهدة والاتصال ، كما يذهب أهل التصوف .

ولعلك تسأل : كيف شاهد حى بن يقظان الله ، وما أوصافه ؟ غير أن ابن طفيل هرب من الجواب معتذراً « بأن مجال العبارة هنا ضيق ، وأن الالفاظ على كل حال توهم غير الحقيقة » .

ثم تذهب القصة الى أن جزيرة قريبة من جزيرة حى بن يقظان كان يسكنها جماعة اعتنقت شريعة إلهية ، وكان على رأس الجماعة رجلان من أهل الخير والفضل ، أحدهما أسال والآخري سلامان . أما أسال فكان أشد غوصاً على الباطن وأكثر عثوراً على المعاني الروحية ، وأطمع في التأويل ، وأما سلامان فكان أكثر احتفاظاً بالظاهر وأشدّ بعداً عن التأويل وأوقف عن التصرف والتأمل ، وكلاهما مجتهد في الأعمال الظاهرة ومحاسبة النفس ومجاهدة الهوى . وطلب أسال العزلة والتفكير ،

ولزم سلامان الجماعة وتعلق بالجمهور . ثم امتطى أسـال متن البحر ورحل الى الجزيرة المجاورة يـشد العزلة والانفراد ، فالتقى هناك بحى بن يقظان فتعارفا ، وتعلم حى لغة الانسان ، وحكى كل منهما لصاحبه ما يعرفه ، فوجدا أنهما متفقان فى العناية وهى الوصول الى الله : حى بن يقظان بطريق العقل والتأمل ، وأسـال بطريق الملة والشريعة . وهكذا وفقت القصة بين الفلسفة والدين .

ولا ينبغي أن تصرقنا هذه النتيجة عن الأفكار الأخرى التى بثها ابن طفيل فى ثنايا قصته ، لأنها حقاً جديرة بالنظر والاعتبار . وهى أفكار تتصل بعلم الحياة وعلم النفس وعلم الاجتماع : أصل الحياة ، ومنشأ اللغة ، وظهور الحضارة ، وفضل الانسان على الحيوان ، وسبيل المعرفة ، وغير ذلك من المسائل الأساسية الداخلة فى صميم الفلسفة ، والتى وصل العلم الحديث الى حل بعضها ، ولا يزال الجدل دائراً حول بعضها الآخر .

من هذه المسائل نشأة الإنسان . وتحدثنا نظرية التطور أن الكائنات الحية ظلت تتسلسل فى الرقى حتى بلغت الإنسان ، وأن جميع الأحياء كانت مائة وأرقاها الأسماك ، ثم عاشت بعضها على اليابسة فنشأت الزواحف ، ثم ارتقى بعضها الى ذوات الأربع ، واختلفت أجناسها ، وتعددت أنواعها . وهذا كله كلام جميل يحاول به العلماء رد الكائنات الحية الى أصل واحد ، غير أن الرقى فى داخل الجنس الواحد ليس دليلاً على تطور الجنس بما يحمل من صفات ذاتية الى جنس آخر يختلف عنه فى الصفات . لهذا السبب ذهب القدماء الى أن الكائنات خلقت كذلك منذ نشأة الحياة وبدء الخليقة ، وتذهب الكتب الدينية هذا المذهب ، فتحدثنا أن نوحاً عند الطوفان ، حمل فى سفينته من كل صنف زوجين . وقد عرض ابن طفيل القضية على الوجهين دون أن يرجح أحدهما على الآخر : الوجه الأول أن حى بن يقظان نشأ بغير أب ولا أم ، بل تولد من الأرض ، وامتزج الحار بالبارد والرطب باليابس فى طينة تخمرت وتهيأت لقبول الروح الذى هو من أمر الله . فكأن ابن طفيل يحجز عن حل المشكلة الأبدية وهى خروج الحى من الميت ، فاضطر الى القول بأن الروح دائم الفيضان من عند الله . أما الوجه الثانى لنشأة حى بن يقظان عند من ينكرون تولده بغير أب

ولأم ، فإن ابنة أحد الملوك ، وكانت باهرة الحسن والجمال ، منعها أبوها من الزواج ، فتزوجت سرّاً قريباً لها يسمى يقطان وأنجبت منه « حى » ، وخشيت الفضيحة ، فوضعت في صندوق ألقت به في اليم حتى استقر على شاطئ الجزيرة التي عاش فيها ، وأرضعته فيه غزالة فقدت وليدها .

ولم ينطق حى بن يقطان لغة كهذه اللغات التي يتحدث بها الناس ، ولكنه أخذ يحكى نغمة الطيبة ، وكذلك كان يحكى جميع ما يسمعه من أصوات الطير وأنواع الحيوان . وهذه هي إحدى النظريات المسلم بها في العلم الحديث عن نشأة اللغة

ثم اهتدى الى قدرة يده على معالجة الأغصان واتخاذ العصي وتسوية أطرافها واستعمالها للدفاع . واليد في أعضاء الإنسان هي سر تفوقه على الحيوان ، والأصل في تحضره .

واتخذ لنفسه من الريش ستاراً لعورته ، لأن الحيوان مستور بالأذنان والأوبار . وهي نظرية بعيدة الاحتمال في عملة الكسواء ، إذ المشاهد أن بعض القبائل التي تعيش في خط الاستواء لا تزال عارية تماماً ، ولم يستر الإنسان عورته إلا لأسباب اجتماعية تتعلق بالغريزة الجنسية وحيلة الذكور بالإناث .

ولا أريد أن أحدثك كيف اهتدى حى بن يقطان الى النار وفائدتها ، والى اتخاذ الأسلحة من الأحجار المشحوذة ، والى النظر في أجسام الكائنات وتشريحها لمعرفة أسرار تركيبها : لأننى أحب أن تقرأ بنفسك هذا الكتاب ، فتطلع على آراء فلاسفة المسلمين ، وتعرف أن الشرق بلغ في وقته من العلم والحضارة مبلغاً يجعلك تعزّ بالماضى وتفخر بالتراث القديم .

## آفات البلاغة

قال محمد كاتب إبراهيم بن المهدي وكان راوياً وعلامة في النحو : سمعت أبا داود — وجرى شيء من ذكر الخطب وتمييز الكلام — يقول : تلخيص المعاني رفق ، والاستعانة بالغريب عجز ، والتشادق في غير أهل البادية نقص ، والنظر في عيوب الناس عي ، ومس اللحية هلك ، والخروج مما بنى عليه الكلام إسهاب .

# مسئولية الاطباء

## في الشريعة الاسلامية وفي القانون المقارن

لحضرة الاستاذ الدكتور أحمد محمد ابراهيم

القاضي بمحكمة الدنيا الوطنية

الناس في حاجة ماسة الى الاستعانة بالاطباء لعلاجهم بما يصيبهم من أمراض وما يحدث لهم من إصابات . ويقوم الاطباء - في سبيل ممارسة مهنتهم - بأعمال تعد في ظاهرها جرائم تستوجب العقاب ، فقد يصف الطبيب للمريض دواء يحدث له جسيم الآلام ، وقد يترعضوا من أعضائه ، أو يجري له جراحة فيشق صدره أو بطنه ، وقد يترتب على العلاج وفاة المريض أو شفاؤه بعاهة تلازمه إلى الأبد .

ورغم أن أكثر ما يقوم به الاطباء - وخصوصا الجراحين منهم - يستوجب العقاب ، فإن عدم مسؤولية الاطباء عن هذه الأفعال ليست محل خلاف . ولكن ما هو أساس عدم المسؤولية ، وما هي الشروط الواجب توافرها في عملهم حتى يعفوا من هذه المسؤولية ؟

ونرى - قبل بحث هاتين المسألتين - أن نذكر أن القوانين الوضعية في كل الدول المتعدية تنظم كيفية ممارسة مهنة الطب ، فتقصرها على الأشخاص الحاصلين على شهادات دراسية تؤهلهم للقيام بها ، بعد أن يكونوا قد أمضوا فترة طويلة في دراسة علمية وعملية لأصول هذه المهنة وقواعدها ، حتى تستطيع الدولة أن تأتمنهم على علاج رعاياها ؛ وإذا قام بالعلاج شخص من غيرهم فإنه يسأل عن نتيجة فعله مسؤولية الشخص العادي ، فلا يتمتع بأي حماية قانونية ، فضلا عن عقابه على جريمة ممارسة مهنة الطب بدون تصريح من الجهة المختصة .

وهذه التفرقة بين من حصل على شهادة تخول له ممارسة الأعمال الطبية وبين من لم يحصل عليها ، لا نجدها واضحة في كتب الفقه الإسلامي . ومرد ذلك - فيما نعتقد - أن قصر ممارسة أعمال الطب على من درسوا قواعده لم تعرف بطريقة رسمية في الدول الإسلامية المختلفة ، وليس معنى ذلك أن قواعد الشريعة

الفراء تبيح ممارسة المهنة لكل شخص ، بل كل ما نقصده هو تقرير أن التنظيم الحديث لرجال هذه المهنة لم يكن مبرروفا لديهم وقت أن وضعوا الأحكام الفقهية التي ذكروها في كتبهم . فإذا تطور الزمن وصار من أهم واجبات الدولة أن تحافظ على صحة رعايتها وأن تقيم شر المشعوذين والدجالين ، فإننا نقرر - في اطمئنان - أن مثل هذا التنظيم ليس مما يتنافى مع أحكام الشريعة ، بل بالعكس فإنها توجبه ؛ فقد نص الفقهاء على أنه يحجر على المتطبيب الجاهل لأنه يفسد أبدان الناس . وليس المقصود بالحجر هنا حقيقة الحجر وهو المعنى الشرعى الذى يمنع نفوذ التصرف ، فلو باع الطبيب الأدوية بعد الحجر نفذ بيعه ، ولكن المراد بالحجر هو المنع الحسى ، أى يمنع عن عمله حسيا ، لأن المنع عن ذلك من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر <sup>(١)</sup> . كما نص في مذهب الإمام أحمد على أنه إذا قام بأعمال التطبيب شخص غير حاذق في فنه ، فإن فعله يعتبر فعلا محرما <sup>(٢)</sup> .

#### أساس عدم المسؤولية :

ذكرنا فيما تقدم أن عدم مسؤولية الأطباء عن أفعالهم ليست محل خلاف من أحد ، ولكن ما هو الأساس القانونى لعدم المسؤولية ؟

ذهب بعض الشراح وقضت بعض المحاكم بأن انعدام المسؤولية يرجع إلى رضا المجنى عليه ؛ فالعملية الجراحية لا يجوز للطبيب أن يجريها إلا بعد الحصول على موافقة المريض ، وهذا الرضا كاف للقول بعدم مسؤولية الطبيب ، واعتبار عمله مشروعاً . وهذه النظرية هى المعمول بها فى القضاء الانجليزى : لأن القاعدة عندهم - بصفة عامة - أن رضا المجنى عليه يبرر الفعل . ويقول بها بعض علماء ألمانيا ، وبها قضت محكمة النقض المصرية فى حكم قديم لها .

ويترتب على الأخذ بهذه النظرية أن رضا الشخص المعالج يعدم المسؤولية مهما كانت صفة المعالج ، فيستوى أن يكون طبيباً ماهراً أو أن يكون شخصاً لا دراية له بالمهنة ولم يحصل على أى دراسة فى علوم الطب ؛ كما يترتب عليه انعدام

(١) الدرر شرح الفراء - ٢ - ص ٦٢٨ .

(٢) المفتى - ٦ - ص ١٢٠ .

المسئولية مهما كان الباعث على العمل ، فلا مسئولية عليه ولو لم يكن يقصد العلاج بل كان غرضه بتر عضو حتى يستطيع الشخص الذى بتر أحد أعضائه أن يفر من التجنيد الإجبارى .

ويؤخذ على هذه النظرية — خصوصا فى مصر وفرنسا — أن انعدام رضا المجنى عليه ليس ركنا من أركان جرائم الجرح أو إعطاء المواد الضارة ، وعلى ذلك فرضاء وعدم رضاء يستويان فى النتيجة ، أى أن المسئولية تتوافر ولو كان الفعل برضاء المجنى عليه ؛ فمن يضرب شخصا أو يجرحه يعاقب ولو كان لم يفعل ذلك إلا بناء على إلحاح من المجنى عليه .

وقد ذهب بعض العلماء الفرنسيين إلى أن انعدام المسئولية يرجع إلى انعدام القصد الجنائى فالقصد الجنائى ، ركن فى جميع الجرائم العمدية ، فإذا انعدم انعدمت معه الجريمة ولم يكن ثم فعل يستوجب العقاب . والشخص المعالج لا يقصد الاعتماد على المريض بل يريد له الشفاء ، فنيته طيبة وليست نية آثمة .

ويترتب على التسليم بهذه الفكرة أنه يجب أن يعفى من المسئولية كل شخص يباشر أعمال الطب ولو لم يكن مرخصا له بذلك مادام أنه يقصد شفاء المريض بفعله ، فهذه النية الطيبة يستوى فيها من حصل على شهادات فى الطب ومن لم يحصل على شيء من ذلك .

ويعاب على هذه النظرية أنها تخلط بين الباعث وبين القصد الجنائى ، فالباث على الفعل يختلف من شخص إلى شخص ومن حالة إلى حالة ، فقد يعتدى شخص على آخر انتقاما منه ، أو ليحصل على ماله ، أو ليظهر قوته ؛ ولكن القصد الجنائى فى كل الجرائم ( التى من نوع واحد مهما اختلفت البواعث ) واحد لا يتغير ، والقصد الجنائى هو أن يرتكب الشخص الفعل المحرم ، وهو يعتقد أنه محرم ؛ فشق البطن غير جائز ، وكل من ارتكب هذا الفعل وجب عقابه مهما كان الباعث على فعله ، لأن البواعث لا دخل لها فى وجود الجرائم وانعدامها .

والرأى السائد الآن فى مصر وفرنسا - هو أن عدم مسئولية الأطباء راجع الى أن المشرع أراد ذلك ، فإنه بتنظيمه مهنة الطب وقصره حق ممارستها على من تلقى فيها دراسة خاصة وحصل على شهادة تؤهله لذلك ، قد أباح للخاصلين على هذه الشهادة ممارسة الأعمال التى تقتضيها مهنتهم ولو كانت فى ذاتها جريمة يعاقب عليها

الشخص العادى . والعلة فى إباحة هذه الأفعال هى أن أعمال الأطباء تعود بالفائدة على الفرد وعلى المجتمع ؛ فمن صالح الفرد أن يعيش سليما قويا خاليا من الأمراض والعلل ، ومن صالح المجتمع أن يكون أفرادہ متمتعين بالصحة أقوياء خالين من الأمراض لينتجوا ويعود الخير على الجميع .

وإذا رجعنا الى كتب الفقه الاسلامى لمعرفة أساس انعدام مسؤولية الأطباء وجدنا أن أساس انعدام المسؤولية هو رضا المجنى عليه ؛ إذ رأى جمهور الفقهاء أنه لو قال شخص لآخر اقتلتى أو اجرحنى ففعل فلا يقتص منه لرضاء المجنى عليه بالفعل (١) ، وحكم الطبيب فى عدم المسؤولية هو حكم الشخص العادى فيها ، لأن الطبيب لا يقوم بعمله إلا بناء على رضا من المريض ، كما سنوضح فيما بعد .

ومن رأينا أنه يجب عدم الأخذ برأى جمهور الفقهاء فى هذه المسألة : فقد سبق أن بينا أهم الاعتراضات التى توجه اليه فى تفقده الحديث ، وهى اعتراضات لها قيمتها ولها وجاهتها ؛ فالأخذ بهذا رأى يهدم كل الآثار التى تترتب على تنظيم المشرع لمهنة الطب تنظيما من مقتضاه تحريم ممارستها على غير الأطباء : لأن الإعفاء من المسؤولية على أساس رضا المريض يشمل الطبيب وغير الطبيب ، وفى ذلك الخطورة كل الخطورة على الفرد وعلى المجتمع . فكثيرا ما يجمل المريض مصلحته وينساق خاف الدجالين وأدعياء الطب الذين قد يأتون أفعالا محققة الضرر وهم لا يعلمون ، ومع ذلك يفرون من العقاب بحجة أن قيامهم بالعلاج كان بناء على رضا المريض ودعوته .

ومن رأينا أنه يجب أن يكون سبب الإعفاء من العقاب فى الشريعة الإسلامية هو نفس السبب السائد الآن ، أى أن يكون أساس الإعفاء هو رغبة المشرع فى إباحة بعض الأفعال للأطباء ما دام القيام بواجب المعالجة يستدعيها ولو كانت فى ذاتها جرائم نظرا للفائدة التى تعود على الفرد وعلى المجتمع من ذلك . ويترب على الأخذ بهذه الفكرة ضرورة القول بمعاقبة غير الأطباء لو ارتكبوها ولو كان المريض هو الذى استدعاهم لعلاجه ، فإدام عملهم محرما ويجب الحجر عليهم

(١) من أراد زيادة الايضاح فليرجع الى مؤلفنا « القصاص فى الشريعة الإسلامية » ، ص ١١٠

وما بعدها والمراجع المشار اليها .

فكيف لا نعاقيهم ؟ . هذا فضلا عن أن قصر ممارسة المهنة على أشخاص معينين يتضمن منع سواهم من ذلك <sup>(١)</sup> .

شروط إباحة أعمال الطب :

ولا يكفي أن يكون الشخص طبيبا حتى يستطيع أن يعالج الناس ويقوم بإجراء الجراحات وهو آمن المستولية الجنائية ، بل لا بد من أن تتوفر في عمله الشروط الآتية حتى يستطيع أن يتمسك بالاعفاء من المستولية .

أولا : يجب أن يكون تدخل الطبيب لعلاج المريض . فمن أجل هذه الغاية أباح المشرع أعمال الأطباء ، فإذا انحرف الطبيب عن هذه الغاية وقصد غرضا آخر بعلاجه عد مسئولا عن أعماله مستولية الشخص العادي ، فإذا بتر الطبيب يد شخص حتى يفر من الخدمة العسكرية أو جهمض حاملا لأنها حملت سفاحا ، عوقب على هذه الأفعال ، واعتبرت مسئوليته عنها مستولية عمدية . وقد أجمع كبار الفقهاء في فرنسا على أن الطبيب الذي يستأصل مبيض امرأة بناء على طلبها ولم تكن حالتها الصحية تستدعي القيام بهذه العملية ، فإنه يسأل عن هذا الفعل ، مستولية عمدية . ويسأل الطبيب عن فعله أيضا إذا كان الغرض منه القيام بإجراء اكتشاف علمي دون أن يكون بقصد علاج المريض .

وقد يبدو أن هذا الشرط غير لازم وفقا لرأى جمهور فقهاء الشريعة مادام أن أساس الإعفاء هو رضا المجنى عليه . ولكننا إذا أمعنا النظر في بحث العلاقة بين الطبيب والمريض وجدنا أن هذا الشرط لا بد من توافره ، لأن الصلة بين الطبيب والمريض صلة عقدية يحكمها العقد الذي هم بينهما ، والمريض في العادة يطلب من الطبيب أن يتولى علاجه ويترك له اختيار طريقة العلاج ، فإذا تجاوز هذا الغرض فإنه يعد مسئولا عن أعماله التي ارتكبها خارج حدود العقد ، إلا أنه يجب أن نلاحظ أنه وفقا لرأى جمهور الفقهاء لا يسأل الطبيب ولو لم يكن يقصد العلاج ما دام المريض قابلا ذلك . والرأى الذي نقول به كفيلا بالعقاب في مثل هذه الحالات .

(١) ونحن لا نسلم بما يقول به جمهور الفقهاء من أن الرضا بالقتل أو المرح يسقط القصاص ،

من هدى الإسلام :

## من أين لك هذا ؟

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد المنعم أحمد النمر  
المدرس بمعهد القاهرة

يشعر الناس كبيرهم وصغيرهم أن المجتمع المصرى تسوء ظاهرة من أخطر الظواهر على حياة الأمم ، وتسلط عليه علة من أكبر العلل الهدامة لكيان الشعوب ؛ تلك هى ظاهرة استغلال المراكز للانتفاع الشخصى والثراء . وقد طغت هذه الظاهرة واستشرت حتى كادت تجرف فى تيارها النفوس الشريفة ، وتسم العقلية الجديدة . فهناك أناس حذعوا من حولهم بمظاهر الإخلاص والوطنية والغيرة على الصالح العام ، ولبسوا مسوح الزهد والقناعة حتى وثق الناس بهم ، ووصلوا بهذا الطريق الى المراكز التى يستطيعون فيها أن ينهضوا بالشعب ويقدموا له الدليل على صدق إخلاصهم ؛ ولكنهم بدل ذلك راحوا يستغلون غفلته ، ويسخرون مراكزهم للثراء ، ويتوصلون على حسابها الى المال الوفير ، ويصبحون بين يوم وليلة من ذوى الثروات الضخمة ، ويحسب الناس ويتساءلون : كم أخذ هذا ؟ وكم أنفق ؟ وماذا تبقى له بعد ذلك ؟ فيجدون أن الذى تبقى له أكثر مما أخذه !! فمن أين إذن أنفق عن بذخ ؟ ومن أين له كل هذا ؟ وسرت هذه الروح - روح استغلال المراكز للثراء - من الكبار للصغار ، ومن الرؤساء للبرموسين ، حتى أصبح من الغريب أن نجد الموظف العفيف ، وصاحب المركز النزيه ؛ فصغار الموظفين والعمال الذين يتولون أعمالا تتيح لهم هذه الفرصة لا يمكن أن يتركوها تمر دون أن ينتفعوا ، حتى أصبح هذا عادة عنده ، كأنه لا يتماضى من الدولة أجرا على عمله . وهؤلاء الذين ييدهم عقد الصفقات وإعطاء المشروعات

لا يمكن أن تفلت من أيديهم فرصة الانتفاع . والمتعمدون والمقاولون خير من يعرف هذا ويساعد عليه وإن كان يشكو منه . وأنا وأنت أيها القارىء نعرف هذا وتحدث عنه ، ونلجسه في العبارات الشاهقة ، والضياع الواسعة التي تقيم بنفسها الدليل القوي على اتهام أصحابها . ومع هذا كله يقف المجتمع وتقف الدولة بتشريعيها وقوانينها وسلطانها عاجزة عن محاسبة هؤلاء وسؤالهم : من أين لهم هذه الثروة المفاجئة ، وكيف هبطت عليهم ؟ فليس في القانون للآن مادة تبيح محاسبة المالك ، من أين ملك ؟ ولقد كان هذا المعجز وهذا القصور سيئاً في قوة شيوع هذه الظاهرة وسيطرتها على العقول سيطرة تنذر بالخطر : فإن الدولة التي تفسد ذمم عمالها وخدامها ، ويذهب هباء نداء الواجب والضمير فيها ، دولة تحطم نفسها بنفسها ، وتقوض بنيانها بيد أبنائها ، وتعرف مقدماً حكم التاريخ فيها مهما بلغت هذه الدولة من متانة البنيان ، وعظمة السلطان ، ونباهة الشأن : فإنا بالناس بدولتنا الناشئة التي نريد أن نبني لها مجداً ونشيد لها نهضة ! .

ولقد دفعت الغيرة بعض الناس على أن يفكروا في قانون محاسبة الوزراء وغيرهم من الكبار ، ومنع قصور هذا عن الغاية المرجوة والعلاج المنشود فإنه يسير متعثراً في الظلام ، لا يكاد يرى النور حتى ترده إلى الظلمات أباد لا تريد له الحياة .

ولقد واجه رسول الله صلى الله عليه وسلم حالة فردية تشبه حالتنا التي نشكو منها الآن ، ولمس صورة من الصور الكثيرة التي تمر بنا ، وشعر عليه السلام بالخطر يهدد كيان الدولة الإسلامية الوليدة ، وينخر في عظام المجتمع الإسلامي وهو في بدء تكوينه ، فسارع عليه السلام ، وهو القائد الخبير والمربي الملهم والمشرع الذي لا ينطق عن الهوى : سارع إلى وضع علاج حازم حاسم كفيل بالفضاء على روح استغلال المراكز للانتفاع الشخصي وسد الباب في وجوه الطامعين : وضع عليه السلام العلاج وسبقنا إليه بأربعة عشر قرناً ، ولا زلنا نحن نئن ونشكو من فداحة الداء ، وفي أيدينا خير الدواء .

• روى البخاري في صحيحه عن أبي حميد الساعدي قال : « استعمل النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً من بني أسد على صدقات بني سليم ، فلما جاء إلى رسول الله

وحاسبه قال : هذا الذى لكم وهذه هدية أهديت لى : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فهلا جلست فى بيت أهلك وبيت أمك حتى تأتيك هديتك إن كنت صادقا ؟ ثم قام رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المنبر فخطب الناس وحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد فإنى أستعمل رجلا منكم على أمور مما ولانى الله فإتى أحدكم يقول : هذا لكم وهذه هدية أهديت لى فهلا جلس فى بيت أبيه وبيت أمه فينظر : أهدى أم لا إن كان صادقا ! فوالله لا يأخذ أحدكم منها شيئا بغير حقه إلا جاء الله يحمله على رقبته يوم القيامة ، إن كان بعيرا له رغاء ، أو بقرة لها خوار ، أو شاة تبعر ، ثم رفع عليه السلام يديه حتى رأينا بياض إبطيه وقال : ألا هل بلغت ، ألا هل بلغت ، ألا هل بلغت . . . !

وهذا الحكم وهذا القرار يتقرر مصير هذا الكسب الذى وصل الى يد هذا الرجل ويصل الى يد أمثاله من بعده الى يوم القيامة ، ويتبين حكم الإسلام فيه . فهذا رجل من الذى ولائم عليه الصلاة والسلام جباية الصدقات وتحصيل الضرائب من بنى سليم ، ذهب إليهم نائبا عن رسول الله ومثلا لبيت المال ليتقى من مواشيهم زكاتها المفروضة ، وقد رجع الى الرسول بالزكاة التى حصلها ومعه شئ خاص به ، هدية أهداها القوم له وخصوه بها ، وجاء الى رسول الله ولم يخفها عنه ، بل صارحه بها ظانا أن ذلك مما لا يتنافى مع مهمته ، ولا يتعارض مع وظيفته ، ولا يغضب رسول الله ، ما دامت هدية صادرة عن رضا واختيار ؛ ولكن كيف يتغاضى الرسول وهو الذى يضع الأسس والمبادئ لسعادة الشعوب ورقها وصيانة نظمها ، وسلامة أوضاعها ! أليست هذه الهدية مما يؤثر فى عمل الموظف ؟ أليست مالا أخذه بسلطان عمله ، وطمعاً فى رحابة صدره وتنازله عن بعض واجباته ، وتساهله معهم فى أية ناحية من النواحي تجر عليهم كسبا وفائدة ، وتعود على الدولة بالخسارة مهما كانت صغيرة أو كبيرة ؟ وقد قدر الرسول هذه النواحي — وهو خير من يتندر — فكان غضبه شديداً . انظر معى إلى قوله لعامله يؤنبه ويبين له خطاه — مع أنه كما يفهم كان عن حسنة — « هلا جلست فى بيت أهلك وبيت أمك حتى تأتيك هديتك » أرايت تأنيباً مع توجيه ، وتقريعاً مع تشريع ، أشد من هذا وأوجع ؟ !

ولم يدع رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الحادثة تمر دون أن يعلق عليها ويضع بسببها مبدأ عاماً يبقى من بعده نبراساً وهدى للعالمين ، وشفاء لجراحات المجتمع وسداً لأطماع الطامعين ، فقام رسول الله إلى المنبر — كشأته في كل أمر خطير ذي بال — ووجه إلى أصحابه الكلام ، ولم يرد أن يحبه صاحب الحادثة ، فلم يصرح باسمه في كلامه إبقاء على ما في نفسه من خير وتقديرًا لحسن النية في احتفاظه بهديته ؛ وهذا من كمال أدبه وعالي إدراكه ، عليه الصلاة والسلام .

لقد انتهر عليه السلام هذه المناسبة لتوجيه أصحابه إلى الأوضاع السليمة التي يجب أن يكونوا عليها ، وإلى الأسس الفاضلة التي تكون المجتمع الإسلامي السليم ، فتكلم في غضب ظاهر ؛ ولكن في أدب كامل ، وبين الحكم ، ولم يترك بيان سببه وتوجيهه إلا أنظاراً إلى علته ، فقال لأصحابه : كيف يستسيغ الواحد منكم وقد وليته عملاً عاماً أن يستغل سلطانه ووظيفته فيقبل الهدايا التي تقدم إليه من الناس ؟ هل يتصور الرجل منكم أنه كانت تأتيه هذه الهدايا لو كان شخصاً عادياً لا يرجى عطفه ولا تنتظر منه رعاية ومحابة في عمله ؟ لئن كان في شك من هذا فلا يجلس في بيت أبيه وأمه مجرداً من سلطان الوظيفة التي تجمع حوله آمال الطامعين فيه ، مجرداً من أمل الانتفاع من ورائه ، ولينظر هل يتقدم هؤلاء الناس له بالهدايا التي تقدموا بها إليه وهو في عمله ؟ إن هذه الهدايا ستقطع ولا شك عنه ، وسوف لا يظفر بها بحال ؛ فهي إذن مال أخذه بسيف الرغبة أو الرهبة ، وتحصل عليه بسلطان الدولة التي ليست ملكاً له ، فليس من الحلال أن يأخذه أو ينتفع به مهما صاحب هذا من مظاهر الرضا من الدافعين للهدايا ، فإن ما يكتن وراء هذه المظاهر من أغراض غير شريفة ليكفي في ردها وفي تحريمها .

ويرى رسول الله عليه الصلاة والسلام أن الأمر خطير . وأن الموضوع يستدعي التوكيد والتشديد لاتصاله بأسس المجتمع الإسلامي ، فيقسم - وإنه لقسم لو تعلمون عظيم - : والذي نفسي بيده لا يأخذ أحدكم من هذا المال شيئاً بهذا الأسلوب إلا تحمله وزره في الآخرة - بعد وزره في الدنيا - وفضحه الله على رؤوس الأشهاد يوم القيامة ، وصور له إثمته في هذا اليوم صوراً من الهدايا التي قبلها تعلن عن إثمته وتبرهن أمانته وأمام الناس على جورته وظلمه . ثم يرفع الرسول

عليه السلام يديه في عناية واهتمام بالغين ، حتى يرى الصحابة بياض إبطيه ، ويتجه الى الله يشهده على أنه قد أبرأ ذمته ونصح لأمته ، وبين هذا الامر الخطير وأعطاه ما يستحقه من توجيه ، و يعلن أنه بذلك قد بلغ الرسالة وأدى ما في عنقه من أمانة ، وعلى الناس أن يختاروا ، فمن اهتدى فليفرسه ، ومن عمى فليعياها ، وما أنا عليكم بحفيظ .

هذا هو الهدى النبوى الكريم ، والتشريع الإسلامى الحكيم ، يريد الحاكم والعامل نظيفا في عمله نزيها في قصده ، عفا في تصرفاته ، بعيدا عن الشبهات ، لا يستحل إلا أجره ، ولا يستغل سلطانه ليلأ خزائنه وجيبه ، ولا يقبل مالا جاءه طمعا في جاهه وسلطانه العاجل أو الآجل ، وبذلك تصان المصالح العامة ، وتسير الامور في مجراها الطبيعى ، لا يؤثر عليها حيف أو جور ، يصل كل إنسان الى حقه ، ويطمئن الى سلامة تصرفات حكامه ، ولا يظن بهم الظنون ، ولا تضع على الدولة حقوق ، ولا يستغل مرافقها أصحاب المصالح الشخصية ، ولا تخضع للسيارات والآهواء ، فتفقد التوازن ، ويختل دولا العمل .

ألمست تحس أيها القارئ مع الشعب بفداحة الخطب الذى أصاب الدولة المصرية من سيطرة الشركات على مرافقها زمنا طويلا ، واستغلالها استغلالا يتجه كله الى مصلحة الشركة دون مراعاة مصالح الجمهور الذى يشتكى ولا يجد من يحميه من عسف هذه الشركات الاجنبية واستهتارها .! .والذى مكن لهؤلاء الدخلاء من اللعب بمصالح الجمهور لإنماسهم بعض أبناء البلد الذين أنخمتمهم الشركات بعطاياها وهداياها وعضويات مجالسها .

إن الحديث النبوى الكريم الذى ذكرته ليضع الأساس لمحاسبة الوزراء والموظفين ومن يستغلون نفوذهم للأثر على حساب مصالح الشعب ، ويضع حدا للفوضى والارتباك ، ويقضى على روح الرشوة التى سيطرت على النفوس .

وهو أساس وضعه الرسول منذ أربعة عشر قرنا ، وقبل أن تكون أوروبا الحديثة التى نأخذ منها القوانين .

ومستابع البحث والكشف عن هذا المبدأ فى أعمال الخلفاء الذين تولوا سياسة المسلمين بعد الرسول عليه الصلاة والسلام .

ذكرى مرور خمسين سنة

## الشيخ جمال الدين الافغانى

مصلح دينى وزعيم سياسى

لفضيلة الاستاذ محمود الشرقاوى

خرج جمال الدين من مصر أو أخرج منها بأمر من الخديو توفيق فى أواخر سنة ١٨٧٩ ، فقصده إلى الهند مرة أخرى وأقام فى حيدرآباد ، وفيها ألف كتابه « الرد على الدهريين » باللغة الفارسية ، وقد نقله الى العربية الشيخ محمد عبده فيما بعد .

ويقول مؤرخو جمال الدين فى إخراجه من مصر : إن توفيقا كان يقرب اليه جمال الدين ويعتز به قبل أن يلى عرش مصر ، وكان يعدّه إن هو ولى هذا العرش أن يؤيده فى إصلاحاته وأن يعينه على تحقيقها ، فلما ارتقى توفيق عرش مصر أخذ جمال الدين يستنجزه وعده ويستحثه ويلج فيه حتى ضاق توفيق ذرعاً به فنفاه . ويقول الشيخ رشيد فى تاريخ الأستاذ الامام : إن نشاط جمال الدين كان ينعص على انجلترا ، وكان فنصل انجلترا فى مصر غير راض عنه ، وإن الحكومة البريطانية سمعت عند توفيق فى نفيه .

وعندما كان جمال الدين مقيماً فى حيدرآباد قامت الثورة العراقية ، وكانت الحكومة البريطانية تعتقد أن جميع الثورات والانقلابات التى تقوم فى الشرق أو فى بلاد الاسلام إنما هى من صنع جمال وتحريضه ، فخشيت منه فى هذه الثورة العراقية ، وألزمته الانتقال من حيدرآباد الى كلكتا ، وأقامت عليه الرقابة فيها .

فلما انتهت الفتنة العراقية باحتلال إنجلترا مصر، أباحت له حكومة الهند مبارحة البلاد، فغادرها الى لندن، واستقر فيها أياماً، ثم تركها الى باريس.

ويقول واحد من مؤرخي جمال الدين: إنه قصد في هذا الوقت الى أميركا، وإنه رغب في أن يتجنس بالجنسية الأميركية، ولكن هذه الرحلة وهذه الرغبة مشكوك فيهما جداً.

بقى جمال الدين في باريس ثلاث سنين، وكان في ذلك الوقت قد أحسن اللغة الفرنسية. أما العام الأول من هذه السنين فقد بقي فيه يكتب المقالات والفصول في الصحف الفرنسية، وكانت آراؤه التي يبدئها في السياسة وفي الأمور العامة تلقى عناية كبيرة واهتماماً من الحكومات الأوروبية التي لها روابط بالبلاد الإسلامية.

وكان الشيخ محمد عبده في هذا الوقت نفسه مبعداً من مصر الى الشام بسبب الثورة العراقية، فبعث إليه جمال الدين أن يوافيه في باريس فوافاه إليها. ونظم السيد جمال الدين والشيخ محمد عبده أمر إصدار مجلة إسلامية لنشر دعوتيهما الإصلاحية ومحاربة الاستعمار الذي نكبت به البلاد الإسلامية، فأصدرا لهذا الغرض مجلة «العروة الوثقى»، كان جمال الدين يدير سياستها العامة والشيخ عبده يحرر فصولها، وأزججت هذه الصحيفة الحرة القوية، الحكومة الإنجليزية، بسبب عنفها في خصومة الاستعمار البريطاني، فحاربتها حرباً عنيفة، ومنعت دخول أعدادها الى مصر والهند.

ولم تن الحكومة البريطانية والحكومة الفرنسية أيضاً في حرب هذه الصحيفة وإعنائها حتى لم يستطع الشيخان مولاة إصدارها، فتوقفت بعد أن أصدرا منها ثمانية عشر عدداً<sup>(١)</sup>.

قصد جمال الدين بعد توقف «العروة الوثقى»، عن الصدور إلى لندن، وتفاوض مع حكومتها في شؤون البلاد الإسلامية، وفي شؤون السودان خاصة

(١) صدر العدد الأول في ١٣ مارس سنة ١٨٨٤ والأخير في ١٦ أكتوبر سنة ١٨٨٤ وقد أعيد طبع مقالاتها في القاهرة مرتين في سنة ١٩١٠ وسنة ١٩٢٨.

حيث كانت ثورة المهدي ناشبة وقتذاك ( سنة ١٨٨٥ ) . ثم انتقل بعد ذلك إلى روسيا القيصرية فأقام فيها أربع سنين بين موسكو وبطرس برج .

وفى سنة ١٨٨٩ كان شاه الفرس ناصر الدين يزور أوروبا ، وكان جمال الدين أيضا في ميونخ ، فتقابلا ، ورغب الشاه إلى السيد أن يصحبه إلى إيران ، فلبى السيد الدعوة ، فلما ذهب إليها أكرمه الشاه وعينه وزيرا للحرب وقربه إليه ، ولكن الشاه أوجس بعد ذلك من جمال الدين ، حيث رأى محبة الناس له ، وشهد تأثيره في نفوسهم وقوة سلطانه عليهم جميعا . وأحس جمال الدين تغير الشاه عليه وتوجسه منه وخوفه ، فاستأذنه في الخروج ؛ ولكن الأمر فسد بين الشاه وبين جمال الدين قبل أن يخرج ، حتى احتفى جمال الدين بمقام الشاه عبد العظيم خوفا من بطش ناصر الدين ، وأقام في مقامه هذا سبعة أشهر حيث نال منه المرض ، ولم يجد ناصر الدين مندوحة من أن يجترى على حرمة الشاه عبد العظيم فيهاجم في مقامه جمال الدين . وقبض على جمال الدين ثم أخرج وهو مريض إلى حدود الدولة العثمانية ؛ ولكن جمال الدين كان قد استطاع أن يؤلب الناس على الشاه ، وأن يكيد له ، وأن يجاهر بخلعه ودعوة الناس للخروج عليه ، فلم تمض على إخراجه من إيران خمس من السنين أو ست حتى قامت الثورة على ناصر الدين واغتاله واحد من الثائرين ، ثم قال في اعترافه : إن القتل بتحريض جمال الدين<sup>(١)</sup> فلما طلبته حكومة إيران لمحاكمته رفض السلطان عبد الحميد تسليمه .

ولما أخرج من إيران قصد البصرة فأقام بها إلى أن زال عنه مرضه ، ثم سافر إلى لندن مرة أخرى . ثم ترك لندن إلى الآستانة في سنة ١٨٩٣ .

في هذه الفترة التي قضاها السيد في الآستانة رعاها السلطان عبد الحميد وأكرمه ، فخصص له قصرا منيفا ، وأجرى عليه في كل شهر خمسا وسبعين ليرة عثمانية ، ولكن السيد كان في مقابل ذلك يحين السلطان وأسيره ، وبقي على هذا الحال حتى أصابه السرطان في فكه آخر سنة ١٨٩٦ ثم امتد إلى عنقه ، وبقي يتعرض حتى مات في يوم ٩ مارس من سنة ١٨٩٧ وقال بعض أصدقاء السيد : إن موته كان بتدبير عبد الحميد ، ثم دفن باحتفال مهيب في مقبرة المشايخ بالآستانة .

(١) أخرج جمال الدين من إيران في أواخر سنة ١٨٩٠ أو أوائل السنة الثانية . وقتل الشاه ناصر الدين في سنة ١٨٩٦ بيد ميرزا رضا الكرماني .

ونحن نجد من هذه الترجمة القصيرة الموجزة لحياة السيد أن شخصيته كانت فريدة بين شخصيات هذا الشرق الإسلامي ، فهو رجل من رجال الدين ، ولكنه يدرس إلى جانب هذه العلوم الدينية علوم الطب والتشريح والرياضة ، وهو يعرف إلى جانب لغته الوطنية الأفغانية ولغته الثقافية العربية ، اللغة الفارسية والتركية وقليلًا من الإنجليزية ، ويحسن اللغة الفرنسية<sup>(١)</sup> وكذلك نرى أن هذه الحياة التي عاشها السيد كانت حياة فريدة بين حيوات الرجال في هذا الشرق الإسلامي من هذا العهد ، فهو رجل دين ، ولكنه يشتغل بالسياسة العامة ، ويشغل بالحرب ، حتى نرى ناصر الدين شاه الفرس يجعله وزير حربه ، ويشغل بالسياسة الشعبية ، فهو شريك في التمهيد للثورة العراقية في مصر ، ومحاول أن يستفيد من الثورة المهدية في السودان ، ومتهم بالاشتراك في حزب تركيا الفتاة ، بالاستانة ، ومؤسس وموجه لجمعية العروة الوثقى في مصر وغيرها من بلاد هذا الشرق الإسلامي ، وهو يشتغل أيضًا بهذه السياسة ، الدبلوماسية ، فيفاوض الإنجليز ويفاوض الروس في شؤون المسلمين جميعاً ، وهو يمد عند توفيق أن يكون مصلحاً إذا ولى عرش مصر ويعاهده ، وهو يتخذ إلى جانب الدروس والشروح والمحاضرات وسيلة لم يتخذها رجال الدين من قبل .

فهو يحمل من الصحف ، أداة لدعوته السياسية والإصلاحية والدينية ، ويصدر في باريس مجلة « العروة الوثقى » ، ويكتب في صحف باريس مقالات تثير اهتمام الحكومات الأوروبية ، ويثير مع الكتاب الفرنسي الكبير رينان ، حواراً يشغل به المفكرين ، مدافعاً به عن الإسلام . ومقرراً صلاحيته وقابليته للعلم ولما يستجد ويفيد من حياة المدنية الحديثة : وهو رجل دين ، ولكنه رحب الفكر واسع الأفق غير متعصب لرأى ولا مذهب : يعمل لوحدة الأمم الإسلامية الدينية كما يعمل لوحدة السياسية : فقد روى مؤرخوه أنه سعى للتوفيق بين الشيعة وبين أهل السنة ، ورمى في سعيه هذا إلى هدف سياسي وهدف ديني معاً : وهو فوق هذا كله عارم الطبع يسعى سعيه إلى أهدافه متخذاً كل سبيل حتى سبيل العنف ، فيكاد يكون من المؤكد أنه شريك أو محرض على قتل

(١) ص ٨ و ١١ من كتاب الإسلام والتجديد في مصر .

شاه الفرس ناصر الدين ، وأنه سعى في بلاد كثيرة من بلاد الإسلام إلى قلب نظام الحكم التي يرى فيها تعطيلاً للنهضة . ونسب إليه أنه كان يرى جواز خلع الأمراء المسلمين الذين يمالئون النفوذ الأوربي ويؤيدونه في بلادهم . وروى « براون ، صديق جمال الدين أنه قال له ، لا أأمل في الإصلاح قبل قطع ستة رموس أو سبعة ، <sup>(١)</sup> وأنه سعى من هذه الرموس شاه العجم وكبير وزرائه ، وكلاهما قتل . ويقول مستر د بلنت ، إنه فكر في خلع خديو مصر أو التخلص منه <sup>(٢)</sup> لأنه اعتقد أن وجوده عائق عن الإصلاح .

ونرى من أخلاق جمال الدين هذه الحدة الصارمة التي جعلته يخاصم شيخ الإسلام في الأستانة ويطلب إليه أن يساجله علناً فيما يرى من رأى ، بل يطلب أن يحاكم شيخ الإسلام على أن تهجم على جمال الدين وسلط عليه الواعظين والصحف أن يسبوه وأن يتهموه بالإلحاد والزندقة . وقد انتهت هذه الحدة الصارمة وهذا اللجاج في خصومة شيخ الإسلام وحربه إلى أن يخرج جمال الدين من الأستانة كما رأينا من قبل . وكذلك نرى هذه الخلة نفسها في علاقات السيد بشاه الفرس ، وبتوفيق ، وبحكمومة الهند وإنجلترا ، وفي كل ما يتصل برأيه وجهاده .

وقد ألف جمال الدين كتابه ، الرد على الدهريين ، باللغة الفارسية حينما كان يقيم في الهند للمرة الثانية ، وقد كتب إليه صديق أن هذا المذهب الدهرى يحمى دعوة نشيطة إليه في هذه البلاد . وليس لهذا الكتاب قيمة كبيرة حتى إن كثيرين من مؤرخي جمال الدين وتلاميذه لا يذكرون نسبه إليه ، ولعله ألفه لغرض سياسى حيث نسب إلى حكومة الهند أنها تعين هؤلاء الداعين إلى المذهب الدهرى في الهند لتشغل الناس عن أمرهم وأمرها ، وانصرف المسلمين في الهند عن دينهم .

أما مجلة «العروة الوثقى» فقد رأينا أن ما كتب فيها كان للشيخ الإمام محمد عبده ، وأن السيد كانت له إدارة سياستها . وكذلك محاضراته التي ألقاها في الأستانة وهو عضو في مجلس المعارف ليست لها قيمة كبيرة حتى تلك التي أثارت شيخ الإسلام حسن أفندى فهمى .

(١) ص ١٥ من كتاب الإسلام والتجديد يدعى مصر .

(٢) ص ١٥ من كتاب التاريخ العربى لاحتلال إنجلترا مصر .

فليس لهذا الكتاب ولا لهذه المحاضرات من القيمة ما يبرر هذه المسكاة الرفيعة التي وصل إليها جمال الدين ، ولا هذا الذكر الباقي له في تاريخ هذه النهضة الدينية السياسية للشرق الاسلامى .

فلم يبق إذن إلا أن يكون جمال الدين قد بلغ هذه المسكاة حياً وميتاً لذات نفسه وصفاته العظيمة الممتازة . هذه الشجاعة الأدبية والسطوة النفسية والسلطان فيما يعتقده الحق ، وهذا الإخلاص للبدأ والرأى والعقيدة ، والدؤوب فى السعى إلى تلك الغايات الكريمة البعيدة التى قصدها جمال الدين وسعى إليها ، وكده وجهده ولقى فى سبيلها العنت والتشريد والنق والتهمة والمرض : هذه الصفات وهذا الدؤوب والكدح هما اللذان جعللا من السيد مصلحا دينياً وزعيماً سياسياً كما وصفناه فى رأس هذين الفصلين ، وجعلت منه رائداً إماماً للشيخ محمد عبده ، ولذلك انفر القليل من المصلحين الذين لهم الفضل كله فى نهضة هذا الشرق الاسلامى العربى ، وفى هذه الثورة الفكرية التى لم تخب نارها منذ أوروها .

يقول مستر د بلنت ، فى كتابه الممتع « التاريخ السرى لاحتلال انجلترا مصر » : إن جمال الدين هو أول من وجه الإصلاح الدينى فى العصر الأخير توجيهاً مشمراً ، ويرى « أن من أغرب ما يروى أن الفضل فى نشر هذا الإصلاح الدينى الحر بين العلماء فى القاهرة لا يعود إلى عربى أو مصرى أو عثمانى ، ولكن إلى رجل عبقرى غريب يدعى السيد جمال الدين الأفغانى ، تلقى تربيته الدينية فى بخارى ، وبغير أن يتصل بأى أستاذ من الذين يعيشون فى مراكز الأفكار الاسلامية الراقية ، استنبط من درسه وتفكيره الآراء التى تعزى إليه اليوم (١) » .

ثم يقول مستر د بلنت ، إن دعوة جمال الدين تماثل « ما حدث من إحياء المسيحية بأوروبا فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر (٢) » .

(١) ص ٧٧ من التاريخ السرى لاحتلال انجلترا مصر .

(٢) ص ٧٨ من التاريخ السرى لاحتلال انجلترا مصر .

# دراسات للشعر في العصر المملوكي

السرقات والمعاني التي توارد عليها الشعراء

لفضيلة الأستاذ الشيخ يوسف البيومي

المدرس بكلية اللغة العربية

ظاهرة أدبية من الواضح بحيث لا تخفى على النظرة العابرة ، بله العين الناقدة ، يلحظها الدارس للشعر في هذا العصر : تلكم هي السرقة ، أو التزامم على المعنى الواحد .

ولا أحسب لهذا التزامم من سبب غير نقص الثقافة وقصر الخيال ، وجذب القريحة ، وما يستتبعه ذلك من بحث عن أسباب للتفوق والإجادة قد يجدها الشاعر في الصنعة اللفظية والحلية البديعية حيناً ، وقد يجدها في توليد المعاني التي سبقه إليها غيره بالزيادة أو النقص أو النقل أحياناً ، وقد يجدها في غير هذا مما يصدق من ألوان السرقات حتى يكاد يخفى إلا على الناقد البصير .

وهكذا شاعت السرقة — كما شاع التقليد — في المعاني والأخيلة ، حتى تعدت الأموات إلى الأحياء .

فما يكاد الشاعر يُغير على معنى قديم فيجمله بحلية من حلي البديع ، أو يخفيه — وكثيراً ما يكون ذلك — في ثوب من أثواب التورية ، حتى تتلفه أيدي الشعراء بالصقل والتهذيب ، والزيادة والنقص ، وكل يحاول أن يختص به بما يلبسه من ثياب الصنعة والزخرف البديعي .

ومن العجيب أن الشعراء لم يجدوا في نفوسهم من ذلك غضاظة ، ولم يشعروا بشيء يمس كرامتهم شعراء يحسون الجمال فيعبرون عنه ، ويشعرون بالحياة فيحسنون تصوير هذا الشعور ، بل إن منهم من صرح بالسرقة في شعره : فهذا ابن الوردي ، وهو شاعر مجيد ، يعلن في جرأة غريبة أنه يسرق ما أراد من المعاني ، ويعلل ذلك أو يعتذر عنه بما يذكر في هذه الآيات :

وأمرق ما أردت من المعاني فإن فتمت القديم حدث سيرى  
ولم ساويته نظما فحسبي مسارة القديم وذا الخيري  
وإن كان القديم أنتم معنى فهذا مبلغى ومطار طيرى  
وإن الدرهم المضروب باسمى أحب إلى من دينار غيرى  
وما ظنك بتوم بلغ من فقرهم فى المعانى ونضوب قرائحهم ولجذاب أخيلهم  
أن يمدحوا بالتصيدة الواحدة أكثر من واحد ؟ !  
حكوا أن عويس النالية <sup>(١)</sup> « كان يفعل لك ، فلما عوقب على صنيعه قال :  
« هن أبكار أفكارى أزوجهن من شئت » .

ما ظنك بتوم هذه حالهم ؟ وما تظنهم فاعلين أمام هذا القصور الفاضح  
والعجز الشائن ؟ إنهم لا بد لاجئون إلى معانى السابطين يسرقونها سرقة مستترة  
بالتورية حيناً ، وسافرة فى أثوابها التى سرقت فيها نفسها فى كثير من الأحيان .  
وأخيراً أدت المنافسة التى كانت سوقها قائمة فى هذا العصر بين شعراء مصر  
والشام ، إلى سرقة هؤلاء من أولئك ، وأولئك من هؤلاء .

حكوا أن جمال الدين بن نباتة كان يخترع المعنى الذى لم يسبق إليه ويسكنه  
بيتا عامرا من أبياته . فيغير عليه صلاح الدين الصفدى <sup>(٢)</sup> حتى اضطر ابن نباتة  
إلى أن يؤلف كتابه ( خبز الشعير ) يكشف به أمر هذه السرقة .  
قال ابن حجة وهو يتكلم على براعة الاستهلال :

وأما براعة الشيخ جمال الدين بن نباتة فى خطبة كتابه المسمى ( خبز الشعير )  
فأنها خاص الخاص ، ولا بد من مقدمة تكون هى النتيجة الموجبة لتسمية هذا

(١) هو ( عويس بن حجاج بن سيار ) الأديب شرف الدين السعدى المعروف بعويس تصغير  
عيسى . العالية فى الشطرنج شاعر اشتهر فى المواليات ثم نظم العشر وعرف طرفا من اللغة وشارك فى غيرها  
ولد سنة ٧٣٠ هـ وتوفى سنة ٨٠٧ هـ .

(٢) هو صلاح الدين ( خليل بن أريك ) الصفدى الأصل الدمشقى البدار ، من صدور العلماء  
ولحول شعراء زمانه ومتقدى كتابه ، تولى كتابة الانشاء بمصر والشام ، وله عدة مؤلفات أشهرها  
وأعظمها ( الوافى بالوافيات ) كتاب تراجم يقع فى أكثر من ستين مجلدا يوجد منه مبعة عشر مجلدا  
مخطوطا بدار الكتب الملكية ، وله ( أعيان العصر ) و ( جناس الجناس ) وعلق شرحا على لامية العجم  
توفى سنة ٧٦٤ هـ .

الكتاب بخبز الشمير فإنه مأكول مذموم ، وما ذاك إلا أنه كان يخترع المعنى الذى لم يسبق إليه ويسكنه بيتا من أبياته العامرة بالمحسن ، فبأخذه الشيخ صلاح الدين الصفدى بلفظه ولا يغير فيه غير البحر ، وربما عام فى بحر طويل يفتقر إلى كثرة الحشو ، واستعمال مالا يلائم ، فلم يسع الشيخ جمال الدين إلا أن جمعه من نظمه ونظم الشيخ صلاح الدين ، واستهل خطبته — وهذا مكان الاستشهاد لبراعة الاستهلال — بقوله تعالى « رب اغفرلى ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمنا . ورتب كتابه المذكور على قوله : قلت أنا ، فأخذه الشيخ صلاح وقال .

ثم ذكر ابن حجة أمثلة كثيرة لذلك فى خزانة الأدب ، نذكر منها بعضا مع تعليق ابن حجة ، ليكون ذلك درسا للون من ألوان النقد فى هذا العصر .

فمن ذلك قول الشيخ جمال الدين : قلت :

ومولع بفخاخ يمسدها وشراك  
قالت لى العين : ماذا يصيد ؟ قلت : كراكى (١)

فأخذه الشيخ صلاح الدين وقال :

أغار على سرح الكرى عندما رمى الـ كراكى غزال للبدور يحاكى  
فقات ارجعى يا عين عن ورد حسنه ألم تنظريه كيف صاد كراكى  
قال ابن حجة : وأحسن ما وقع فى هذا الباب للشيخ جمال الدين أنه قال :  
بروحى عاطر الأنفاس ألقى على الحسن خالى الوجنتين  
له خالان فى دينار خـد تباع له القلوب بحبتين  
فأخذه الصلاح الصفدى وقال :

بروحى خـده المحمر أضحت عليه شامة هـرط الحجة  
كأن الحسن يمشقه قديما فنقطه بدينار وحبه

فلما وقف الشيخ جمال الدين على هذين البيتين قال : لا إله إلا الله ، الشيخ صلاح الدين سرق - كما يقال - من الحبتين حبة .

(١) فى لفظ ( كراكى ) تورية : المعنى القريب جمع ( كركى )

وبعد أن ذكر ابن حجة عدة أمثلة قال : قال الشيخ جمال الدين وأجاد الى الغاية :

فديتك أيها الرامي بقوس      ولحظ يا ضنى قلبي عليه  
لقوسك نحو حاجبك انجذاب      وشبه الشيء منجذب اليه  
فأخذ الشيخ صلاح الدين وقال :

تشرط من أحب فذبت وجدا      فقال وقد رأى جزعى عليه  
عقيق دمي جرى فأصاب خدي      وشبه الشيء منجذب اليه  
ثم قال ابن حجة يوازن بين المتطوعتين وهو لون من ألوان نقده :

وما أظن الشيخ صلاح الدين - غفر الله له - لما سمع ما قال الشيخ جمال الدين ونظم بعده هذين البيتين ، كان في حين الاعتدال ؛ وأين انجذاب القوس الى الحاجب من انجذاب الدم الى الخد ؟ وليته - يعني ابن نباتة - في براعة استهلاله بقوله : رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمنا ، قال بعدها : اللهم ومن دخل بيتي كافرا بفوائدي المنعمة ، وبيت شعري سارقا من ألفاظه ومعانيه المحكمة ، فاجعله في سره وعلايته ، وعاقبه على قوله ونيته !

وإنه وإن كان الصفدي قد أغار على معاني ابن نباتة ، قد سنّ ابن نباتة هذه السنة وسلك تلك الطريق من قبل ، فأغار على معاني (الوداعي) <sup>(١)</sup> الذي يذكر أن سبك التورية في قوالب لم يسبقه أحد إليها ، ولا سقط فكره عليها <sup>(٢)</sup> ، فمثل لنا بهذا سرقة المصريين من الشاميين ، كما مثل لنا الصفدي إغارة الشاميين على معاني المصريين .

فن مؤائد الوداعي التي تطفل ابن نباتة عليها قوله من قصيدة :

أثخن عينها الجراح ولا إثم      م عليها لأنها نعساء  
زاد في عشقها جنوني فقالوا :      ما بهذا ؟ قلت : بي سورا

(١) هو الأديب الشاعر (علاء الدين علي بن المظفر بن إبراهيم بن عمر) الكندي الوداعي ، تولى عدة ولايات وكتب بديوان الانشاء بدمشق ، ولد سنة ٦٤٠ هـ وتوفي سنة ٧١٦ هـ .

(١) ابن تغري بردي بالمثل الصافي في ترجمة الوداعي .

(٢) هو القاضي الفاضل أبو علي عبد الرحيم بن علي بن الحسن اللخمي اليسياني ثم العسقلاني ثم المصري محي الدين ، وقيل مجير الدين الوزير صاحب ديوان الانشاء وشيخ البلاغة ، ولد سنة ٥٢٩ هـ وقيل إن مسودات رسائله لو جمعت بلغت مائة مجلد . توفي سنة ٥٩٦ هـ . حسن المحاضرة .

أخذه ابن نباتة فقال وهو مطلع قصيدة :

قام يرنو بمقلة كحلاء علمتى الجنون بالسوداء  
وقال الوداعى :

إذا رأيت عارضا مسلسلا فى وجنة كجنة يا عاذلى  
فاعلم يقينا أننى من أمة تقاد للجنة بالسلاسل

أخذه الشيخ جمال الدين وزناً وقافية وقال :

أفدى التى ساق إليها مهجتي فرع طويل تحت حسن طائل  
قلبي بصدغيها الى طلعتها يقاد للجنة بالسلاسل  
وقال الوداعى من قصيد :

يفتن بالفاتر من طرفه ويريقه البارد يا حار

أخذه ابن نباتة وقال من قصيد :

لو ذقت برد رضاب من مقبله يا حار ما ملت أعضائي التى ثملت  
قال ابن حجة : مع أن الشيخ جمال الدين فتر عن الفاتر ، يتصد الفاتر من  
طرف المحبوب فى بيت الوداعى .

وقد ذكر ابن حجة الكثير من تطفل ابن نباتة على الوداعى بالخزانة ولأنه  
ليخيل الى من يقرأ كل هذه السرقات التى سرقها ابن نباتة من الوداعى ، والتى  
عرضنا لبعضها ، والتى سرقها من غيره مما تزخر به كتب الأدب ، أن هذا الشاعر  
الذى سارت ملوك الأدب قاطبة بعد الفاضل خلف ركابه وتحت لوائه - لم يأت  
فى شعره بجديد . وإذا كانت هذه هى حال الملوك فما هى إذن حال الوزراء والأمراء  
ورجال الحاشية ؟ بل ما هى حال الرعايا والسوقة ؟ ! إنها حال مزرية حقاً ،  
مزرية بقدر الشعر وبكرامة الشعراء ، أن يغيروا هذه الإغارات الفاحشة على  
بضاعة الأحياء بعد تقليدهم التقليد <sup>(١)</sup> الفاضح الشائن لطرائق القدماء ؟

(١) ربما عرضنا للدراسة هذا التقليد فى مبحث خامس .

## بَابُ الْأَسْئَلَةِ وَالْفَتْوَى

جاء الى لجنة الفتوى بالجامع الازهر الاستفتاء الآتى :

- ١ — يحلف غالب الزراع بالطلاق خارج المنزل أثناء العمل بالحقل أنه لا يفعل كذا ثم يفعله ؛ هل يقع أم لا ؟
  - ٢ — التغنى والترنم بالأذان والصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم عقبه بالتغنى جهرا كما يفعله غالب المؤذنين ؛ هل ذلك جائز أم لا ؟
  - ٣ — ما حكم الجهر فى المسجد بتسبيح أو قراءة قرآن خصوصا سورة الكهف يوم الجمعة ؟ كما أن غالب المقرئين لا يقرءونها بل يقرءون مريم ، طه ، الضحى ، هل هذا جائز أم لا ؟
- أبو الفتوح السيد

### الجواب :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان الى يوم الدين .  
أما بعد : فتفيد اللجنة بما يأتى :

#### عن السؤال الأول :

إن الصيغة التى تجرى على السنة العامة بما هو مذكور بالسؤال ، من قبيل الطلاق المعلق الذى لا يقع بوجود المعلق عليه إذا كان قصد الخالف مجرد الحمل على فعل شيء أو تركه . وظاهر أن العامة لا يقصدون بهذه الايمان إلا مجرد الحمل على فعل شيء أو تركه ، فلا يقع بها طلاق . وهذا على ما ذهب اليه بعض العلماء ، وجرى عليه قانون المحاكم الشرعية ، وهو ما تفتى به اللجنة .

#### عن السؤال الثانى :

لأنه لا يجوز التغنى بالأذان تغنيا يغير كلماته بزيادة حركة أو زيادة حرف أو مد أو غيرها فى الأوائل أو الأواخر . أما التغنى بلا تغيير لحن ، لأن تحسين الصوت مطلوب .

وأما الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم عقب الأذان فهي زيادة على الأذان المشروع : ولم تكن في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ولا في عهد الصحابة والسلف ، رضوان الله عليهم أجمعين . ولا ينبغي لمسلم أن يغير ما كان عليه الرسول وأصحابه ومن تبعهم بإحسان في العبادات التي منها الأذان ، لا بزيادة ولا بنقص ولا بغيرهما ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد » .

هذا وقراءة سورة الكهف كما هو معهود الآن في المسجد يوم الجمعة بصوت مرتفع قبل صلاة الجمعة ، بدعة مستحدثة ، لم تعرف في عهد الرسول عليه السلام ولا في زمن الصحابة والسلف الصالح . ويظن العامة أن قراءتها بهذه الكيفية وفي ذلك الوقت من شعائر الإسلام فهي مكروهة ، لا سيما أن قراءتها على هذا الوجه تحدث تشويشا على المصلين . وقد خرج النبي صلى الله عليه وسلم على أصحابه وهم يصلون ويحجرون بالقراءة فقال : « أيها الناس اكلكم يناجي ربه ، فلا يحجر بعضهم على بعض » . وكذلك الحكم في قراءة غير سورة الكهف من القرآن ، وفي الجهر بالتسبيح أو التهليل ، مما يحدث تشويشا على المصلين . بل نص بعض علماء المالكية على أن ذلك إذا أحدث تشويشا كان حراما .

أما الجهر بالذكر عقب انتهاء الإمام من الصلاة المفروضة ، فقد صح عن ابن عباس أن رفع الصوت به كان على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم حتى قال ابن عباس « ما كنت أعرف انقضاء صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا بالتكبير » . وهذا واضح في مشروعية الجهر بالذكر في هذا المقام .

وحل الإمام الشافعي رحمه الله ما صح عن ابن عباس على أنه كان يقصد التعليم . والظاهر الإطلاق ، سواء قصد به التعليم أم لا . ولكن بشرط ألا يحدث بذلك تشويش على من يكون في الصلاة . والله أعلم ؟

رئيس لجنة الفتوى

عبد المجيد سليم

## من تاريخ الحضارة الإسلامية :

### عباس بن فرناس

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد عبد المنعم خفاجي

« عبقرية الفكر الإسلامي ، ومفخرة الشرق  
السائرة ، وحديث الإنسانية الأولى ، وأول  
طيار ركب متن الهواء » .

١ — يؤمن كثير من الناس بأن الشرق موطن الخيال ، ووادي الأحلام  
والسحر ؛ وأن الفكر الإسلامي من نبتة الفكر السامي ، فيه اضطراب الفكرة ،  
والعجز عن إدراك الحقيقة في جوهرها ، والتنوع بالبحث في حواشيها ومظاهرها .  
ويقولون إن الحضارة الإسلامية حضارة عقيمة ، لم تُسدِّد للإنسانية يداً ،  
ولم ينثُرْ بحملٍ منها جيد . فالجل هو الجل ، مركب البداوة ، ومطية الحضارة  
الإسلامية ؛ والمصباح هو المصباح ، زيت وقيل : استضاء به المسلمون في أزهى  
عصورهم ، كما استعمله الإنسان منذ فجر عصور التاريخ . والماء هو الماء ،  
تجرى به الأنهار ، وتغصُّ به الأودية ، ويحمِّله المسلمون على ظهورهم وفوق  
متون رواحلهم كما كان يصنع القدماء . والفنُّ هو الفن ، لم تنبغ فيه في الإسلام  
يد صناع ، ولا روح ملهم ، ولا عبقرية خالدة ؛ وأين لنا في الفن الإسلامي  
ما نفاخر به معابد أثينا ، وصروح روما ، وفن الكاسرة ، وأهرام الفراعين ؟  
والعلم هو العلم ، كما خلفته مدارس الإغريق ، ومعاهد الرومان وجامعات  
الاسكندرية وجنديسابور وحرَّان ونصيبين .

ونقول لهؤلاء الشاكين : رويدكم ، رويدكم ! لقد عافت الحضارة الإسلامية  
ركوب الجل ، فحافات تذليل الهواء ، وأُنِفَتْ من هذا الفراس النضليل ، فتخذت  
الثريات المشرقة في القصور والمساجد وعلى حفاقي الشوارع والميادين . وأبت  
أن تعيش في نصَب البداوة ، فأدخلت الماء العذب في أنابيب الرصاص إلى

القصور والحمامات والرياض ، وفجرتها من ثغور التماثيل الفنية الرائعة المصنوعة من الذهب الأبريز ، والفضة الخالصة ، والنحاس المموه ، ، وأجرته الى البحيرات الهائلة ، والبرك البديعة ، والصهاريج الجميلة ، في أحواض الرخام المرمرية المنقوشة العجيبة ، . والفن الاسلامي أمامكم فانظروه : في آثار بغداد وقرطبة والقاهرة ودمشق وسواها ، وفي قصور الزهراء والحمام ، ومساجد الشرق العظيمة الشاحنة التي تسخر بالزمن وتبسم في وجوه الأيام ، وإذا لم يسعدكم الوقت والحظ بالاطلاع على التراث العلمي المجيد الذي خلفه رجال الفكر الاسلامي ، فاقروا ما يكتبه عنه المنصفون من الشرقيين والغربيين . والنهضة الاسلامية في الاقتصاد والزراعة والصناعة والتجارة ، وفي الإدارة والسياسة ، والطب والعلاج ، وفي جميع ميادين النشاط الانساني : لا تتعجلوا بالحكم عليها قبل أن تتعرفوا مدى ما وصلت اليه من عبقرية وقوة ومدنية .

فليتقدم هؤلاء في الحكم على حضارة أظلت العالم أحقاباً طوالاً ، ونقلت جميع الحضارات القديمة - بعد أن هضمتها وهزبتها ووجهتها توجيهاً جديداً - الى العالم في أول عصر النهضة الحديثة ، وكانت السبب المباشر في قيام الحضارة الاوربية التي يضيء نورها الدنيا الآن تحت قيادة كميونر علوم راسدي

هذه نظرات عابرة أكتبها تمهيداً لبحثي عن أبي القاسم « عباس بن فرناس » ، مفخرة الشرق ، والمفكر العظيم الذي رددت ذكره الأجيال .

٢ - نشأ « عباس » في بلاد الاندلس في أوائل القرن الثالث الهجري : والدولة للأمويين أحفاد الداخل البطل الأموي الكبير .

وكان لابد له - ككل شاب طامح - أن يرد مناهل العلم ، ويندب فكره وعقله بالثقافة الإسلامية في مساجد قرطبة ودور العلم فيها ؛ فتتلذذ على رجال العلم ثم أعلام الفلسفة الذين كانوا يفكرون ويبحثون ويستنبطون في خفية بعيداً عن عيون الناس والجمهور ممن لا يستسيغون التفكير الحر ولا يشجعون عليه .

ثم خرج « عباس » الى الحياة العامة ، شاباً متأثر الفكر ، متأجج العزيمة ، مشتعل الذكاء ؛ لا يريد أن يفكر كما يفكر الناس ، ولا أن يعيش كما يعيشون ، ولا أن يُعنى بما يعنون به ؛ بل أراد أن يفكر كما يجب أن يفكر ، وأن يستنبط ويخترع ويحدد

كما شاء له عقله وقواه الفكرية السكامة فيه . ولم تكن آمال « ابن فرناس » ، وأفكاره من خيالات الشباب وأكاذيب النفس ، بل كانت مظهرًا لعقلية مبدعة ، وتفكير سليم .

٣ — وبعد قليل تمكن هذا الذهن الحاد التوى من استنباط طريقة لصنع الزجاج من الحجارة ، فكان أول مبتكر لهذه الطريقة الجديدة ، التي نسير على أثرها في شيء من التجديد والدقة والسرعة .

ثم أخذت نفسه تحدّثه : كيف نعيش دون التفكير في اختراع شيء جديد يعرف به حساب الدقائق والساعات والأيام ؟ إن اختراع الشرق الساعات المائية ، فليخترع هو ما تفخر به الأندلس والأندلسيون : وفعلًا تم له ما أراد ، فاخترع آله البديعة ، المنقالة ، التي صنعها على غير مثال لمعرفة الأوقات .

٤ — وحول « ابن فرناس » فكره من جديد إلى ملكة النسر . أياضل هذا الأفق الفسيح ، والجو الرخب ، ميدانا للطيور ترفرف بأجنحتها فيه ، ناعمة بجماله ؟ ولم لا يشاركها فيه الإنسان ؟ هذه الطيور ، أليست تطير بجناحين ، يساعدهما ريش كثيف ، فلم لا يكون لابن فرناس جناحان ممدودان وريش منتشر على جسده ليطير كما تطير النسور في الهواء ؟

وأخذ يكسو نفسه بالريش ويمدّ له جناحين ، ثم كان يوم المحاولة الخطيرة الفريدة ، التي هي أول محاولة بشرية للطيران : فاجتمع الناس من كل حدب ، ليروا هذا الرجل كيف يفتح هذه الآفاق الجديدة أمام الإنسان .

وحرك عباس جناحيه ، ونشر ريشه ، وأخذ يداعب الهواء : فارتفع في الجو ، وطار مسافة بعيدة ، والناس في أماكنهم ينظرون ويعجبون ويسخرون . ثم كان لابد لهذا الطائر أن يهبط إلى الأرض ، فهبط رويدا رويدا ، حتى قرب منها ، فلم يستطع حفظ توازنه ، فسقط مصابا برضوض في جسده .

لقد نظر « ابن فرناس » إلى جناحي الطائر وريشه ، فأمن بأنهما وسيلة في الطيران ، ولم ينظر إلى ذيله ليعرف مدى مساعدته له في طيرانه وحفظ

توازنه وحين هبوطه الى الارض : فلم يصنع له ذيلا كما صنع ريشا وجناحين ، فأصبحت التجربة بإخفاق ما كان أجدره ابن فرناس ، أن يتلافى سببه .

عجب الناس ، وسخروا من « عباس » ، وهزئوا به ، ونظم الشعراء الشعر في السخرية والتندر عليه . وهكذا شأن العبقرين في كل جيل ، يسبقون زمنهم فلا يفهمهم الناس ولا يفهمونهم ، بل ويعادونهم عداة شديدا .

قد يكون نقد الناس وسخريتهم سببا لإحجامه عن إعادة التجربة من جديد ، وقد يكون الباعث على ذلك جهله بسبب إخفاقه في محاولته الأولى وخوفه على نفسه أن تلاقى صدمات جديدة ، وقد يكون الصارف له ما أصيب به من جروح دامية أثرت في صحته .

وعلى أى فرض ، فما كان أقرب « ابن فرناس » إلى الظفر بأمنيته ، وإلى غزو هذا الأفق الجديد وتسخيرها للناس . ولو فعل ذلك لانقلبت الحياة ، وتغير مجرى الحضارة ، ولسجلت الحياة لعباس بن فرناس هذا النصر الذى سجلته بعد أكثر من عشرة قرون « للأخوين رايت » .

هـ — لم يسكن هذا الفكر النائر ، والعقل الجبار . بل أخذ يعمل ويتكر ، حتى تمكن من وضع صورة في بيته ، تمثل هيئة السماء ، يخيل للناظر فيها النجوم والغيوم والرمود والبروق ؛ فعجب منه بعض الناس ، وسخر به الآخرون . ويقول فيه مؤمن بن سعيد الشاعر الأندلسي :

سما عباس الأديب أبى ا لقاسم ناهيك حسن رائقها

.....

وهكذا قضى « ابن فرناس » حياته في تجديد وابتكار ، في سبيل خدمة الحضارة ، والرقى بالحياة الإسلامية في عصره .

٦ — وكان مع هذا موسقيا بارعا ، يعد أول من فك كتاب بطليموس في الموسيقى والألحان ، وأول من فك من الأندلسيين كتاب العروض للخليل ابن أحمد .

٧ - وهو مع هذا النبوغ شاعر أديب : اتصل بالأمير الأموي حاكم الأندلس محمد بن عبد الرحمن ، الذي اعتلى عرش البلاد من ٢٣٨ هـ الى ٢٧٣ هـ : فكان له عنده مقام نبيل ، ومدحه بتصانيد أدبية كثيرة :

أنشد الأمير محمدًا من أبيات :

رأيت أمير المؤمنين محمدًا      وفي وجهه بذر المحبة يشمر  
فقدته مؤمن بن سعيد ، وعابه أن جعل وجه الأمير أرضًا تغرس فيها البذور .  
وخرج أهل طليطلة حوالى عام ٢٤٠ هـ على الأمير محمد واستعانوا بالافرنج ،  
فخرج إليهم بجيوشه وهزمهم وهدم قنطرة مدينتهم : وفي ذلك يقول ابن فرناس :  
أضحت طليطلةً معطلةً      من أهلها في قبضة الصقر  
تركتُ بلا أهلٍ تؤهلها      مهجورة الأكناف كالقبر  
ما كان يبقى الله قنطرة      نصبتُ لحمل كتائب الكفر  
وغنى ابن زرياب بعض الرؤساء ، وعباس بن فرناس حاضر معه ، هذين  
البيتين :

ولولم يشقنى الظاعنون      لشاقتني قنطرة حمام تداعت في الديار وقوع  
تداعين فاستبكين من كان ذاهوى      نوائح ما تجسرى لهن دموع  
فذلَّيلهما « عباس » ، يمدح هذا الرئيس وكان اسمه محموداً :

شدت بمحمود يدي حين خانها      زمانٌ لأسباب الرجاء قطوع  
بنى لمساعى الجود والمجد قبلةً      إليها جميع الأجودين ركوع  
فأجزل له العطاء ، وأسنى له المكافأة :

وبعد ابن فرناس من أوائل من اخترعوا فن الموشحات ، وله القليل منها ،  
مما بقى من أدبه محفوظاً في كتب الأدب الأندلسي ومصادره .

٨ - وبعد فهذه صورة مصغرة لهذا الرجل ، الذى لثم بحق حكيم الأندلس ،  
والذى شغل الفكر الأندلسي حياً وميتاً ، وكان أول من فكر فى الطيران ، والذى  
مضى على وفاته أحد عشر قرناً من الزمان أو يزيد . وكَمْ أودُّ أن أعاود الكتابة  
عنه مرة أخرى ؟

# المبادئ الاشتراكية في الاسلام

لحضرة الأستاذ سعيد زايد

يتحدث الشرق اليوم عن الاشتراكية جهارا نهارا بعد أن كان يتحدث عنها بين أروقة جدران كشيقة، والفضل في ذلك يرجع إلى الحرب الأخيرة وما صححته عن موقف الاشتراكية حيال نظام المجتمعات، وعن الغاية التي ترمى إليها.

والمذهب الاشتراكي كأي مذهب اقتصادي يضع أسسا جديدة يسير عليها المجتمع. وكأي مذهب على ازدهار في ربوع الغرب، ثم انتقل إلى الشرق فوجد مؤيدين ومعارضين، أقول إن المذهب الاشتراكي وجد عند الشرقيين كما هي العادة عندهم من يعقد المقارنة بينه وبين النظم الاسلامية، ويبين موقف الإسلام منه، ومدى اتفاق الاشتراكية مع روح الدين وجوهره، بل إن منهم من قال إن النظام الاشتراكي موجود في الشريعة وفي النظم الاسلامية بخلافه، ومنهم من قال بعكس ذلك؛ وظلت هذه الأقوال تتأرجح تارة نحو اليمين وتارة نحو اليسار، إلى أن أدلى صاحب القول الفصل في مسائل الإسلام برأيه في هذا الموضوع<sup>(١)</sup> ولأول مرة رأيت مجلة الأزهر تنشر مقالاً بعنوان «الإسلام والاشتراكية»، فوددت أن أشارك برأيي في هذا الموضوع بنشر بحث صغير على هامش رسالتي الجامعية، وأبلى أكون بلشره قد وضعت في بناء العلم لبنة.

## نبذة تاريخية

ولدت الاشتراكية يوم أن ولدت الرأسمالية، دون أن تسمى باسمها، ولم يحس بها الناس إلا يوم أن اصطدمت حاجات الإنسان مع المصلحة الرأسمالية، ولقد كانت هذه الاصطدامات منذ العصور الأولى للتاريخ، فأراد البعض أن يحقق رغبة في المساواة بين الأفراد. وبكفي أن نذكر آيتين من كتاب أعمال الرسل

(١) إشارة إلى حديث فضيلة الأستاذ الأكبر لسعادة وزير الحمر المفوض في مصر، وتعليق سعادة الأستاذ الجليل مدير المجلة عليه في المجلد التاسع عشر عنه ١٣٦٧ العدد السابع.

لبولس الرسول لتعرف أن العالم قد حقق معنى الاشتراكية قبل ميلاد المسيح يمترون . ففي الإصحاح الثاني يقول « وكانت عجائب وآيات تجري على أيدي الرسل ، وجميع الذين آمنوا كانوا معاً ، وكان عندهم كل شيء مشتركاً ، والأملاك والممتلكات كانوا يبيعونها ويقسمونها بين الجميع ، كما يكون لكل واحد احتياج » . وفي الإصحاح الرابع يقول « وكان لجمهور الذين آمنوا قلب واحد ونفس واحدة ، ولم يكن أحد يقول إن شيئاً من أمواله له . بل كان عندهم كل شيء مشتركاً ، وبقوة عظيمة كان الرسل يؤدون الشهادة بقيام الرب يسوع ، ونعمة عظيمة كانت على جميعهم ، إذ لم يكن فيهم أحد محتاجاً ، لأن كل الذين كانوا أصحاب حتمول أو بيوت كانوا يبيعونها ويأتون بأثمان المبيعات ويضعونها عند أرجل الرسل ، فكان يوزع على كل واحد كما يكون له احتياج » .

ولقد حاول بعض الفلاسفة من قديم الزمان أن يضعوا نظماً عامة للمجتمع ، يفترضون فيها العدالة المطلقة والمساواة في الحقوق والواجبات ، ولكن هذه النظم كان فيها للخيال نصيب كبير . وإذا رجعنا نحن لمرض صوراً لبعض تفكيرهم فلا بد أن نرجع إلى الدولة التي ازدهر فيها الفكر القديم ، وحاول أن ينفذ إلى صميم المشكلات يلتمس لها حلولاً ، ونعني بها دولة اليونان القديمة ، فنجد أفلاطون في كتابيه الجمهورية والقوانين يبغي دولة يلغى فيها نظام الملكية الفردية ، وتلغى فيها أنظمة الأسرة ، وبذلك تصبح الأموال والنساء والأطفال ملكاً للجميع ، ليتحقق غرض أفلاطون الأكبر ، وهو أن تصبح المدينة أسرة واحدة وإن لم ينصح أستاذ المعلم الأول بإلغاء نظم الزواج إلا في طبقة واحدة من طبقات المجتمع .

هذا هو أساس فكرة أفلاطون ، ومنها نرى أن الواقع المحسوس لم يكن له مجال عند الفيلسوف ، بل أراد أن يرسم بقلبه ما تمناه في صميم قلبه ، والحال التي يبغي أن يكون عليها المجتمع ؛ ولكن أفلاطون بعد أن صدمه الواقع المحسوس في تجربته عاد فعدل عن فكرته وخفف من شيعيته ، فتمال بتقسيم الأموال الموجودة بالتساوي على الأفراد ليستغلوها على أن تستمر ملكيتها للدولة ، ويمكن أن يرث أولاد المستغل حق الاستغلال ؛ كما رجع عن قوله في إلغاء نظم العائلة واحتفظ بنظام الأسرة ، بشرط أن يتم الزواج تحت رعاية الدولة .

وفي القرون الوسطى نجد الفلسفة المسيحية تقول: إن الخطيئة الأولى لا تزال لها آثارها الفعالة في حياة الناس؛ فالظلم والاستعباد قائم، وحب الشهوات والماديات يسود عوضاً عن الفضائل، وربما كانت الملكية الفردية أساساً مساعداً بجوار الخطيئة الأولى لهذا البلاء القائم واقدياً، والذي ينجم عنه عدم المساواة. حقاً إن المسيحية لا تلغى الملكية الفردية، وإنما تريد ملكية في مصلحة المجموع حتى يرفع البؤس والشتاء عن الناس، فهي تريد مجتمعاً تضعف فيه الأنانية. ولقد بالغ بعض المنكرين ووصف ذلك بالاشتراكية، وهي على كل حال وإن لم تكن من قبيل الاشتراكية الحديثة إلا أنها تقرب من اشتراكية الإسلام المعتدلة، كما سنعرف ذلك بعد قليل.

وعلى أثر انهيار النظام الإقطاعي في أوروبا في العصور الوسطى، ابتداءً بالتصادم بين الرأسمالية والطبقة العاملة، وكان ذلك في أواسط القرن الخامس عشر، ولما ظهرت فكرة إلغاء الملكية في ذهن العالم الإنجليزي توماس مور وسجلها في كتابه « الأتوبيا Utopia » وكانت هذه الفكرة نتيجة للشعور بالفارق العظيم بين طبقة الملاك وهم اللوردات ورجال الدين، وبين الفلاحين، ولكن أتوبيا مور كانت كمدينة أفلاطون حلماً يصعب تحقيقه، ولقد ظل هذا الحلم يتردد في ذهن الجماعات، فأخذ العمال يفضلون شيئاً فشيئاً عن السادة ويزالون أعمالاً يدوية، ثم أخذوا يتجمعون في جماعات، كل أبناء حرفة معاً. ثم أخذ حلم توماس مور يتحقق شيئاً فشيئاً على مدى أربعة قرون حتى كان القرن التاسع عشر، فوقفت الأحلام على قدميها نظاماً شيوعياً ونظاماً اشتراكياً.

والواقع أن الفكرة الشيوعية والفكرة الاشتراكية كما نسمع عنهما اليوم نبتت في الأتوبيا التي قال بها توماس مور، وبدأت تنضج على القرون، إلى أن كان نضوجها الكامل نظرياً وعملياً على يد لينين الذي يعتبر الصدى الحقيقي لمور.

وبعد الثورة الفرنسية وتطور الصناعة دخل الناس في عهد جديد، وظهرت في فرنسا نظريات ترمي إلى تنظيم العلاقات في الجماعة، فدامت الثورة قد كفلك لهم المساواة فلا بد من تحقيقها فعلياً. ولقد حاول سان سيمون أن ينظم الإنتاج الصناعي، لأن الصناعة في ذلك الوقت كانت كل شيء، وقال بقيام حكومة صناعية

مكان الحكومة السياسية ، لتحقيق مبدأ العدالة الذي يقول : لكل تبعاً لكفاءته ، ولكل كفاءة أو مقدرة تبعاً لأعمالها .

وفي الوقت الذي قامت فيه دعوة سان سيمون في فرنسا ، قامت في إنجلترا ما يسمى اشتراكية الجمعيات ، وحمل لواءها « روبرت أوين » في إنجلترا ، وشارل فوربيه ، في فرنسا ، ولقد كان لروبرت أوين مصانع ، فأنشأ فيها مساكن وحدائق للعمال ، وأسس لهم صناديق ادخار ، وخفض ساعات العمل ، ولم يحاول فوربيه إلغاء الملكية الفردية ، وإنما حاول توحيد الإنتاج ليصبح للمالك وصاحب رأس المال والعامل نصيب متناسب في المنتجات مع نصيبهم في الإنتاج .

ويطول بنا المقام اذا نحن حاولنا أن نقف عند كل صاحب دعوة اشتراكية نلخص أساس مذهبه ، ويكفي أن نختم تلك النبذة التاريخية برسول الاشتراكية في العصر الحديث ، ألا وهو « كارل ماركس » ، وهو الذي بدأ الاشتراكية من يوم دعوته عهداً جديداً ، إذ تنتقل من الخيالية الى العملية ، والواقع أن مقام كارل ماركس في عالم الاقتصاد والاجتماع كمقام أرسطو في عالم المطلق ، فليس من شك أنه كانت هناك أفكار تداولها الناس من قديم الزمن ، وهي أفكار تمت بطبيعتها الى الأنظمة الاشتراكية كما وجدناها عند أفلاطون وغيره من الفلاسفة ، ولكن العلماء لا يعتبرون مثل هذه الأفكار مكونة لنظام كامل يسمح ان يسمى مذهباً اشتراكياً ، الى أن جاء عالم جمع شذور هذه الأفكار المتفرقة ، وحاول أن يوفق بينها وأن يلائم بين أجزائها ، وأضفى عليها بعض التجارب التي حدثت خلال التاريخ ؛ وجمع كل ذلك تحت ضوء الفكر العلي المظم بحيث بدت هذه الأفكار مكونة لجسم مذهب علي ، وهذا العالم هو : كارل ماركس .

ولقد قام مذهب ماركس نتيجة لفشل المذهب الحر في التجارة الذي نادى به آدم سميث في إنجلترا وفولتير وروسو وجماعة الفيزوكراث في فرنسا ، والذي كان شعاره « دعه يعمل دعه يمر » ، وكان من أثره ظهور فئة الأغنياء الرأسماليين الذي ساعد على توسيع الشقة بينهم وبين الفقراء ظهور الثورة الصناعية واختراع الآلات ، ولقد أسس ماركس مذهب الاقتصادى على أساس المادية التاريخية . ويتلخص في أن المصالح المادية هي التي تحرك الأفراد ، فجميع التطورات والتقلبات التي تصيب المجتمع ترجع الى كفاح الطبقات لتحسين حالها ، فلقد

قامت المنازعات في القديم بين الأرقاء والسادة الى أن تحرر الأرقاء وأصبح لهم حق الحياة، وحديثاً نرى الثورات تقوم لتوفر للطبقة الدنيا حياة رغدة، وسيستمر هذا النزاع حتى يأتي اليوم الذي يتلام فيه نظام الملكية مع نظام الانتاج، وبذلك تصير الملكية اشتراكية .

### الاشتراكية الحديثة :

إذا كان معنى الشيء يتبين في خلال العرض التاريخي له ، فإننا نرى أن الاشتراكية بمعناها العام هي فكرة ومذهب لتنظيم الدولة والمجتمع ، وهي تبغى تحقيق المساواة بمعناها الحقيقي ، ولكن كيف يمكنها تحقيق ذلك ؟ إن التاريخ قد سجل الحوادث الدامية في سبيل الحصول على المال والعقار والاحتفاظ به ، وإن المتأمل لصفحاته ليروعه ذلك الظلم الذي أوقعه الأغنياء بالفقراء وبالتحكم فيهم ، فما العمل ؟ إن الذي يميز الناس بعضهم عن بعض هي الملكية الفردية . إذن ففي إلغائها تحقيق للمساواة ، وهذه الرأسمالية التي هي في صميمها إيثار وتحكم من الأقلية في الأغلبية ، والتي قال عنها لينين إنها أعلى مراتب الاستعمار ، في إلغائها العدل كل العدل . هذا هو المبدأ العام للاشتراكية تتفق فيه كل علمائها .... وإذا كانت المذاهب الاشتراكية تختلف فيما بينها ، فإنها تتفق أيضا في الغايات التي ترمى إليها ، فكلها تتفق على أن النظام الاقتصادي الحالي نظام غير عادل ، ولا بد من مساواة اقتصادية بين جميع الأفراد بلا تمييز في القومية أو الجنس أو السن ، ونظام الملكية الخاصة في نظرهم أساس للاستعباد السياسي والاخلاقي والفكري ، فلا بد من إلغائه وجعل ثروات الانتاج موحدة جميعها في أيدي الدولة تديرها لمصلحة الجميع ، والأفراد يؤدون أعمالا للدولة نظير أجور تعطى لهم بالتساوي ، على أساس قيمة العمل الذي يذجه كل منهم ، والمستنون والضعفاء والمرضى الذين لا يستطيعون أن يؤدوا عملا على المجتمع أن يعولهم ويوفر لهم أسباب الراحة . كذلك يجب أن يكون التعليم مجانا للجميع ، والمهم أن هذه الغايات يجب أن تقوم دولة اشتراكية لتنفيذها ، وهي المالكة الوحيدة لجميع الثروات ووسائل الانتاج ، وهي التي تتولى استثمارها ، فتدير المصانع والمناجم ووسائل المواصلات والنقل ، وتشرف على تربية الفرد ومده بسائر حاجاته .

# عظـات

من التاريخ

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد العزيز السيد موسى

واعظ القاهرة

نشرت في مجلة الأزهر كليات من التاريخ عن حياة القائدين أبي عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد، واستتبع الحديث عنهما طرفاً من الحديث عن الخليفين العظيمين أبي بكر وعمر، وسجل التاريخ بين هؤلاء الأربعة وثائق تاريخية في الفتوحات الشامية، فندى أن تأتي بها لما فيها من العظات البالغة والتعاليم الحازمة.

رسالة من أبي بكر إلى أبي عبيدة :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله بن عتيق بن أبي قحافة إلى أبي عبيدة ابن الجراح . سلام الله عليك . أما بعد ، فقد وليت خالداً قتال العدو في الشام ، فلا تخالفه ، واسمع له وأطع ، فإنني وليته عليك وأنا أعلم أنك خير منه ، ولكن ظننت أن له فطنة في الحرب ليست لك . أراد الله بنا وبك سبيل الرشاد . »

وكتب خالد من الحيرة إلى أبي عبيدة :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من خالد بن الوليد إلى أبي عبيدة بن الجراح . سلام الله عليك . أما بعد ، فقد أتاني كتاب رسول الله يأمرني بالسير إلى الشام والقيام على جندها والتولي لأمرها ، والله ما طلبت ذلك قط ولا أردته إذ وليته ، فأنت على حالك الذي كنت عليه ، لا نعصيك ولا نخالفك ، ولا نقطع دونك أمراً ، فأنت سيد المسلمين ، لا ننكر فضلك ، ولا نستغنى عن رأيك . »

مات أبو بكر قبل واقعة اليرموك بعشرين ليلة ، وبويع بالخلافة من بعده عمر بن الخطاب ؛ وبينما واقعة اليرموك قائمة على قدم وساق وصل إلى أبي عبيدة كتاب قال فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة بن الجراح . أوصيك بتقوى الله الذى يبق ولا يبق سواه ، الذى هداانا من الضلالة وأخرجنا من الظلمات إلى النور ، وقد استعملتك على جند خالد بن الوليد ، فقم بأمرهم بحق الذى عليك ، لا تقدم المسلمين إلى هلكة رجاء غنيمة ، وتنزلهم منزلا قبل أن تستريده لهم ، وتعلم كيف ماتاه . وإياك وإلقاء المسلمين فى الهلكة . وقد ابتلاك الله بى وابتلانى بك ، فغض بصرى عن الدنيا وأله قلبك عنها . إياك أن تهلكك كما أهلكك من كان قبلك ، فقد رأيت مصارعهم ، فلم يبلغ أبو عبيدة إلى خالد خطاب العزل والمعركة قائمة ، بل ترك الأمر على حاله حتى انتهت المعركة بقيادة خالد .

هذه وثائق تاريخية أعرضها للعظة والعبرة بما فيها من خلق عظيم ونبل كريم . فإن الخليفة الأول يكتب إلى قائد الشام وفاتحها يطلب منه التحدى عن القيادة إلى خالد فاتح العراق مع الإشادة بفضله حيث يقول له : وأنا أعلم أنك خير منه . فتقبل ذلك بصدر واسع ونفس هادئة وقلب مطمئن ، ورضى أن يكون مقودا بعد أن كان قائدا مع أسبقته فى الإيمان وأقدميته فى الجهاد فى سبيل الله .

وهذا خالد بن الوليد يكتب إلى أبي عبيدة بأنه تولى القيادة مكانه ، وهو كتاب يقدر فيه أبا عبيدة كل التقدير ، ويحله كل الإجلال ، حيث يقول له : لا نعصيك ولا نخالفك ولا نقطع دونك أمرا فأنت سيد المسلمين لا نتكبر فضلك ولا نستغنى عن رأيك . ولم يعلق بنفسه زهو القيادة ولا كبرياء الرياسة ، بل قدم على أبي عبيدة ولا شئ فى نفسه غير الإخلاص والود . وتلقاه أبو عبيدة ولا شئ فى نفسه غير الإخلاص والود ، وكل واحد تولى أمره وهو عنه راض بما هيء له .

هذه نفسية القائدين العظميين . والخليفة الأول لم يول خالد القيادة لشئ فى نفسه ، إنما كان ذلك لما يرى فيه من الدربة العسكرية والخبرة الحربية ويقصد من وراء ذلك الصالح العام . ثم دار الفلك دورته وجاءت الخلافة إلى الخليفة الثانى ، ولم يكده يضع يده على أمورها حتى أرسل رسولا إلى أبي عبيدة يخبره بعزل خالد وإسناد القيادة إليه . وصل ذلك الرسول وتسلم منه أبو عبيدة ذلك الكتاب ، وواقعة اليرموك قد حى فيها وطيس القتال ، ورأى أبو عبيدة

بحكمته السامية ونظاره البعيد أن يرجى تسليم ذلك الكتاب الى خالد حتى تنتهى هذه المعركة ، لأن هدفه المصلحة العامة ، والمصلحة الخاصة أمام الجميع لا تساوى مثقال ذرة . فهذا خالد أخذ القيادة من أبي عبيدة ، وهذا أبو عبيدة أخذها من خالد ، والصدقة هي الصدقة ، والود هو الود ، وهما الصديقان الوفيان على أى ناحية من النواحي . واسمع حديث الوفاء والود الذى جرى بينهما عند ما وقف خالد على جلية الأمر بعد عشرين يوما من وصول ذلك الكتاب : دخل خالد على أبي عبيدة فقال : يغفر الله لك جاءك كتاب أمير المؤمنين فلم تعلمنى وأنت تصلى خلفى والسلطان سلطانك . فقال أبو عبيدة : يغفر الله لك ما سلطان الدنيا أريد وما للدنيا أعمل ، وإن ما ترى سيصير الى زوال وانقطاع ، وإنما نحن أخوان ، وما يضير الرجل أن يلى عليه أخوه فى دينه ولا دنياه ، بل يعلم الوالى أنه يكون أدناهما إلى الفتنة وأوقعهما فى الخطيئة لما يعرض له من الهلكة إلا من عصم الله عز وجل وقليل ما هم . وإن الخليفة الثانى لم يعزل خالد البرية إنما عزله كما قال فى كتابه إلى الأمصار : إني لم أعزل خالدًا عن سخطه أو خيانه ، ولكن الناس فتنوا به خفت أن ياكلوا اليه ويبتلوا به ، فأجبت أن يعلموا أن الله هو الصانع والالاء يكونوا بعرض فتنة . ذلك هو السبب . وإن سيدنا عمر قدّره بعد ذلك كل التقدير ، فانه لما فتح خالد قنسرين تحت قيادة أبي عبيدة وانتهى الخبر الى عمر قال : أتمر خالد نفسه : رحم الله أبا بكر هو كان أعلم بالرجال منى .

كل هذا يريك رأى العين كيف محق الإسلام أخلاق الجاهلية ، وأحل محلها أخلاقا تمثل الإخاء والتحاب وعدم التجاسد . فان مثل هذا التبديل فى القيادة كان فى عهد الجاهلية يثير حربا ضروسا بين القائدين . فهذا التبديل فى الأخلاق من المعجزات التى تبقى على الدهر أدلة قاطعة على أن الإسلام دين إلهى كان له أكبر الأثر فى ترقية الإنسانية .

تلك صفحة مجيدة من مجد الاسلام ، تصور لك النفوس الطيبة والقلوب المخلصة لله وفى سبيل الله ، ولعلمها تكون عظة وعبرة لقادتنا وعظماؤنا يتخذون منها نهجا قويمًا وطريقا مستقيما يسلكونها فى حياتهم لنهضة بلادهم وإحياء شعوبهم . وبذلك تسعد الأمم وترقى إلى القمم .

# الوضع في الحديث

## أو الكذب على رسول الله

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد رشاد عبد الظاهر خليفة

من العلماء المتخرجين في تخصص التدريس

لا نرى أكبر جرماً بعد الكذب على الله عز وجل من يتناول على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكذب والاختلاق عليه .

وكفاه أن أعد الله له عذاباً أليماً في نار جهنم ، كما أخبرنا الصادق الأمين بقوله « من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » .

ولقد أساء إلى السنة النبوية في عصورها الأولى أقوام أفاكون كـ محمد بن سعيد المصلوب بالشام وإبراهيم بن أبي يحيى الأسلمي بالمدينة ، والواقدي ببغداد ، ومقاتل بن سليمان بخراسان والسكبي بالكوفة ، ومحمد بن زياد اليشكري ، وعبد الله بن سبأ اليهودي وأضرابه ممن تستروا بالإسلام وأخفوا وراء التشيع أغراضهم الدنيئة .

قال حماد بن زيد : وضعت الزنادقة أربعة آلاف حديث ليفسدوا على الناس دينهم .

أو للتعصب والانتصار للمذاهب كما فعل الشيعة والخوارج ، والكرامية (١) ، والخطائية ، والسلمية .

(١) الكرامية : بتشديد الراء مع فتح الكاف : قوم ينسبون لمحمد بن عبد الله بن كرام . والخطائية : بفتح الخاء وتشديد الطاء : فرقة تنسب لآبي الخطاب الأسدي ، كان يقول بأن الله حل في أناس من أهل البيت على التعاقب . ثم ادعى الألوهية . ثم قتل . وجاء أتباعه من بعده . وقالوا أبو الخطاب نبي وفرضوا طاعته بل زادوا على ذلك فقالوا الأئمة أنبياء ، والحسن والحسين ابنا الله . وجعفر الصادق إله ، ولكن أبو الخطاب أفضل منه .

والسلمية : فرقة تنسب للحسن بن محمد بن أحمد بن سالم السلمي .

روى عن ابن لهيعة أنه قال : سمعت شيخا من الخوارج تاب فجعل يقول  
: إن هذه الأحاديث دين فانظروا عمن تأخذون دينكم فإننا كنا إذا هويتنا  
أمراً صيرناه حديثاً . .

وهذا جابر بن يزيد الجعفي الشيعي يزعم أن عنده خمسين ألف حديث ، أو سبعين  
ألف حديث يرويها عن محمد الباقر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب .  
أو للجهل الغالب ابتغاء العبادة والزهادة والتقرب من المولى عز وجل  
والطمع في الثواب والترغيب والترهيب .

ومن هذا القبيل أحاديث القصاص . فقديمًا أكثر القصاص من الأحاديث  
التي ليس لها أصل ، وكان ثقات المحدثين يتعرضون لتكذيبها فيتعرضون لسطط  
العامّة والإيقاع بهم .

يذكر أن الشعبي في أيام عبد الملك بن مروان نزل (تدمر) فسمع شيخا عظيم  
اللحية يقول : إن الله خلق صورين في كل صور نفختان : نفخة الصعق ، ونفخة القيامة .  
قال الشعبي : فرددت عليه وقلت : إن الله لم يخلق إلا صورة واحدة ، وإنما  
هي نفختان .

فقال لي يا فاجر : إنما يحدثني فلان عن فلان وترد علي ؟ ثم رفع نعله وضربني  
بها ، وتتابع القوم على ضربها فما أقبلوا حتى قلت لهم : إن الله خلق ثلاثين صورة .

وروى الخطيب البغدادي عن محمد بن يونس قال : كنت بالأهواز فسمعت  
شيخا يقص : لما زوج النبي صلى الله عليه وسلم عليا فاطمة أمر شجرة طوبى أن  
تنثر اللؤلؤ الرطب يتهداه أهل الجنة بينهم في أطباق . . . ! فقلت له يا شيخ هذا كذب  
على رسول الله . فقال لي : ويحك اسكت ، حدثني الناس . قلت من حدثك ؟ فروى  
لنا إسنادا عن ابن عباس .

وروى عن الليث بن سعد أنه قال : قدم علينا شيخ بالأسكندرية يروي لنا نافع  
ونافع يومئذ حي ، فكتبنا عنه صحيفتين عن نافع ، فلما خرج الشيخ أرسلنا بالصحيفتين  
إلى نافع ، فما عرف منهما حديثا واحدا .

ولعمري إن هؤلاء هم أضر شيء على الدين الإسلامي من سواهم ، وأعظم خطرا عليه ، إذ يحملون العامة والبسطاء على اتباعهم والاقتداء بهم والتمسك بأقوالهم التي ما أنزل الله بها من سلطان .

قال ابن الجوزي في كتابه الموضوعات : معظم البلاء في وضع الحديث من القصاص ، لأنهم يريدون أحاديث ترقق وتنفق ، والصحاح ثقل في هذا ، ولأن القصاص لا يتحرون الصواب ، ولا يحترزون من الخطأ لقلة علمهم وتقواهم ، اهـ .

وجزى الله علماء الحديث أحسن الجزاء تلقاء ما قاموا به من الجرح والتعديل ونقد الحديث وروائه وبيان الصحيح منه والموضوع ، والحسن منه والضعيف ، حتى ألفوا في هذا الغرض الموسوعات الضخمة ، والأسفار التي تنوء بالعصبة أولى القوة .

وإني أذكر لك أيها القارئ الكريم طائفة منها لتكون لك مرجعا ودليلا تهتدى إليه :

فمن ذلك الجرح والتعليل لابن أبي حاتم ، وكتب الذهبي ، وهي فريدة في بابها ، وكتاب الكامل لابن عدي في الضعفاء ، وكتب الميزان للحافظ العسقلاني ، وكتاب العلل للإمام أحمد بن الحلال ، والعلل المتناهية لابن الجوزي ، والآلء المصنوعة في الأحاديث الموضوعة لجلال الدين السيوطي . وغيرها مما لا يمكن استقصاؤه ولا الإحاطة به .

وبعد : فإن للحديث الموضوع علامات وقرائن يعرف بها ، كأن تظهر عليه مسحة الاخلاق ، وتشم منه رائحة الكذب ؛ وذلك بأن تأباه العقول السليمة وتنفر منه القلوب الصحيحة . قال ابن الجوزي : إن الحديث المنكر يشعر له جلد الطالب للعلم ، وينكسر منه قلبه في الغالب .

وقال الربيع بن خيثم : إن للحديث ضوءا كضوء النهار نعرفه ، وظلمة كظلمة الليل نذكره ، وطبعي أنه لا يعرف هذا إلا من له ملكة قوية في فن الحديث ، واطلاع واسع .

وإني أسوق إليك جملة من الأحاديث الباطلة التي لا كتبها السنة العوام ،  
ورددتها أفواههم في الصباح والمساء . فمن ذلك :

أكرموا عمّكم النخلة - لو اعتقد أحدكم في حجر لنفعه - ضاع العلم بين أنفاز  
النساء - قدس القدس على لسان سبعين نبيا آخرهم عيسى بن مريم - لا يدخل ولد  
زنا ، ولا شيء من نسله الى سبعة آباء الجنة . وهذا معارض بقوله تعالى : « ولا  
تزر وازرة وزر أخرى ، ومن ذلك أيضا : الأرض على صخرة ، والصخرة على  
قرن ثور - عذاب أمتي في دنياها أو في قبورها - عليكم بدين العجائز .

هذه أمثلة صغيرة للأحاديث الموضوعة التي لم يقلمها الرسول عليه  
الصلاة والسلام .

ومن القرائن ما يؤخذ من حال الراوى كما وقع لغياث بن ابراهيم النخعي  
حيث دخل على المهدي ( والد هارون الرشيد ) فوجده يلعب بالحمام فساق  
في الحال إسنادا الى النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « لا سبق إلا في نصل أو  
خف أو حافر أو جناح ، فزاد في الحديث أو جناح ، فعرف المهدي أنه كذب  
لأجله ، فأمر بذيح الحمام . ثم قال لغياث هذا : أمهد أن قفاك لتفك كذاب .

ومنها أن يكون لفظ الحديث ركيكا أو مصادما للقرآن الكريم أو السنة  
المتواترة أو الإجماع القطعي أو صريح العقل ، كالحديث الذي وضعه أحد الملاحدة  
وتفوه فيه بكلام لا يصدر عن عاقل فضلا عن نبي مرسل ، فقال مسندا للرسول  
عليه السلام « رأيت ربي بمنى يوم النفر على جمل أورق عليه جبة صوف  
أمام الناس ، .

سبحانك هذا بهتان عظيم ، وكذب محض يصادم قول الله تعالى « ليس  
كشله شيء . . .

ويعرف الوضع في الحديث أيضا بأن يكون فيه وعيد شديد على ذنب  
صغير ، مثل : من ترك العشاء قال له ربه لست ربك فاطلب ربا سواي .

أو فيه وعد عظيم على فعل شيء حقير ، مثل : من أطعم لئمة بنى الله له  
في الجنة ألف مدينة في كل مدينة ألف بيت في كل بيت ألف حورية وصيفة .  
ونحو : لقمة في بطن جائع أفضل من بناء ألف جامع .

فواجب الحكومة ومشیخة الأزهر مصادرة تلك الكتب حتى لا تفسد عقيدة العوام وتشيع بها فيها من أباطيل وأكاذيب .

وواجب على إخواننا المسلمين أن يطلعوا على كتب السنة الصحيحة كالبخارى ومسلم وسنن أبي داود والذسائي وابن ماجه والترمذی فإنها أحسن مرجع لهم بعد كتاب الله العزيز ، وفيها ما يغنيهم ويجدون فيها ضالهم المنشودة وطب قلوبهم ، وإصلاح نفوسهم .

ولا تخلو بعض كتب التفسير كالحازن والبيضاوي والكشاف من الأحاديث الواهية والموضوعة كحديث <sup>(١)</sup> الغرائق ، وأحاديث فضائل السور التي رويت عن أبي عصمة نوح بن مريم المروزي قاضي مرو ، فقيل له من أين لك عن عكرمة عن ابن عباس في فضائل القرآن سورة سورة ، وليس عند أصحاب عكرمة هذا ؟ فقال : إني رأيت الناس قد أعرضوا عن القرآن واشتغلوا بفقهاء أبي حنيفة ومغازي محمد بن اسحاق فوضعت هذا حسبة ( أي احتساباً لوجه الله تعالى ) .

اعلم أن السور التي صحت الأحاديث في فضلها ، الفاتحة والزهروراء ( البقرة وآل عمران ) والأنعام والسيق الطوال بحملا ( البقرة إلى آخر برامة بعد الأنفال وبرامة سورة واحدة ) السكف ويسن والدخان والملك والزلزلة والكافرون ، والنصر ، والإخلاص ، والمعوذتان ، . وما عداها لم يصح فيه شيء .

رب قائل يقول : هل تحل رواية الحديث الموضوع للعالم بحاله ؟ فالجواب : لا يصح مطلقاً سواء أكان في فضائل الأعمال أم في القرآن أم في الترغيب والترهيب أم في المواعظ والقصص أم في صفات الله تعالى إلا إذا كان مقروناً ببيان الوضع ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « من حدث عني بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين » رواه مسلم في صحيحه .

(١) الغرائق جمع غُرُوق اسم لطائر من طيور الليل يشبه الكركي ، استعير لفظ الغرائق للأصنام وحديث الغرائق هو أنه يقال إن النبي عليه السلام قرأ في سورة النجم بمجلس من قریش بعد أن رأيت اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى بإلقاء الشيطان على لسانه من غير علمه صلى الله عليه وسلم به : تلك الغرائق العلاء وإن شاءعن لرحمى . ففرحوا بذلك .

# السنة النبوية الشريفة

ومنزلتها من الدين وضرورة العمل بها

والإنكار على من ردّها

لحضرة الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي

## الفصل الثامن

سنة رسول الله هي الحكمة في قول الله

قال الإمام الشافعي في رسالته ص ٧٦ :

قال الشافعي : ففرض الله على الناس اتباع وحيه وسنن رسوله ، فقال في كتابه : ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ، ٢ / البقرة / ١٢٩ .

وقال جل ثناؤه : كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمهم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون ، ٣ / البقرة / ١٥١ .

وقال : لقد مَنَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا منهم يتلو عليكم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ، ٣ / آل عمران / ١٦٤ .

وقال جل ثناؤه : هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ، ٦٢ / الجمعة / ٢ .

وقال : واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به ، ٢ / البقرة / ٢٣١ .

وقال : وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما ، ٤ / النساء / ١١٣ .

وقال : واذكروا ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفاً خبيراً ، ٣٣ / الأحزاب / ٣٤ .

فذكر الله الكتاب ، وادو القرآن ، وذكر الحكمة ، فسمعت من أَرْضَى  
من أهل العلم بالقرآن يقول : الحكمة سنة رسول الله .

وهذا يشبه ما قال . والله أعلم .

لأن القرآن ذكر وأُتبعته الحكمة ، وذكر الله مَنَّهُ على خلقه بتعليمهم الكتاب  
والحكمة ، فلم يحز - والله أعلم - أن يقال : الحكمة ههنا إلا سنة رسول الله .  
وذلك أنها مقرونة مع كتاب الله ، وأن الله افترض طاعة رسوله ، وحتم  
على الناس اتباع أمره ، فلا يجوز أن يقال لقول فرض إلا لكتاب الله ثم سنة  
رسوله : كما وصفنا من أن الله جعل الإيمان برسوله مقرونا بالإيمان به .  
وسنة رسول الله مبيّنة عن الله معنى ما أراد دليلا على خاصه وعامه . ثم  
قرن الحكمة بها بكتابه فأتبعها إياه ، ولم يجعل هذا لاحد من خلقه غير رسوله . هـ .

## الفصل التاسع

الحجة في تثبيت خبر الواحد

قال الإمام الشافعي في رسالته ص ٤٠١ :

قال الشافعي : فإن قال قائل : اذكر الحجة في تثبيت خبر الواحد بنص خبر  
أو دلالة فيه أو إجماع ، فقلت له : أخبرنا سفيان عن عبد الملك بن عمير  
عن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود عن أبيه أن النبي قال :  
« نضر الله عبداً سمع مقالتي فحفظها ووعاها وأداها ، فرب حامل فقه غير فقيه ،  
ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه . ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم : إخلاص  
العمل لله ، والنصيحة للمسلمين ، ولزوم جماعتهم ، فأن دعوتهم تحيط من ورائهم .  
فلما ندب رسول الله إلى استماع مقالته وحفظها وأداها امرأاً يؤديها ،  
والامرؤ واحد ، كل على أنه لا يأمر أن يؤدي عنه إلا من تقير به الحجة على  
من أدّى إليه ، لأنه إنما يؤدي عنه حلال ، وحرام يحنتب ، وحدث يقام ، ومال  
يؤخذ ويُعطى ، ونصيحة في دين ودنيا . هـ .

وقال في ص ٤٠٦ :

أخبرنا مالك عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال : بينما الناس بقباء

في صلات الصبح إذ أتاهم آت فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أنزل عليه قرآن ، وقد أمر أن يستقبل القبلة ( الكعبة ) فاستقبلوها ، وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة .

وأهل قِبَاءَ أهل سابقة من الأنصار وفقه ، وقد كانوا على قبلة كَفَرَضَ الله عليهم استقبالها .

ولم يكن لهم أن يدعوا فرض الله في القبلة إلا بما تقوم عليهم الحجة ، ولم يلقوا رسول الله ، ولم يسمعوا ما أنزل الله عليه في تحويل القبلة ، فيكونون مستقبلين بكتاب الله وسنة نبيه سماعاً من رسول الله ، ولا بخبر عامّة ؛ وانقلوا بخبر واحد — إذا كان عندهم من أهل الصدق — عن فرض كان عليهم ، فتركوه إلى ما أخبرهم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه أحدث عليهم من تحويل القبلة . ولم يكونوا ليفعلوه - إن شاء الله - بخبرٍ إلا عن علم بأن الحجة تثبت بمثله ، إذا كان من أهل الصدق .

ولا ليحدثوا أيضاً مثل هذا العظيم في دينهم إلا عن علم بأن لهم إحدائه . ولا يدعون أن يخبروا رسول الله بما صنعوا منه .

ولو كان ما قبلوا من خبر الواحد عن رسول الله في تحويل القبلة ، وهو فرض ، مما يجوز لهم — لقال لهم — إن شاء الله — رسول الله : قد كنتم على قبلة ، ولم يكن لكم تركها إلا بعد علم تقوم عليكم به حجة ، من سماعكم مني ، أو خبر عامّة ، أو أكثر من خبر واحد عنى . ٥١ .

وقال أيضاً في ص ٤٥٧ :

ولو جاز لأحد من الناس أن يقول في علم الخاصة : أجمع المسلمون قديماً وحديثاً على تثبيت خبر الواحد والالتزام إليه ، بأنه لم يعلم من فقهاء المسلمين أحد إلا وقد ثبتته — جاز لي .

ولكني أقول : لم أحفظ عن فقهاء المسلمين أنهم اختلفوا في تثبيت خبر الواحد بما وصفت من أن ذلك موجود على كلهم . ٥١ .

وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني في فتح الباري الجزء الثالث عشر ص ٢٠٢ :

وقد نقل بعض العلماء لقبول خبر الواحد أن كل صاحب وتابع سئل عن نازلة في الدين فأخبر السائل بما عنده فيها من الحكم أنه لم يشترط عليه أحد

منهم أن لا يعمل بما أخبره به من ذلك حتى يسأل غيره فضلا عن أن يسأل الكواف ، بل كان كل منهم يخبره بما عنده فيعمل بمقتضاه ، ولا ينكر عليه ذلك ؛ فدل على اتفاقهم على وجوب العمل بخبر الواحد . هـ .

وقال الإمام البخارى فى صحيحه الجزء التاسع ص ٨٦ :

باب ما جاء فى إجازة خبر الواحد الصدوق فى الأذان والصلاة والصوم والفرائض والأحكام ، وقول الله تعالى « فلولاً نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينبذوا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » ، ٩ / التوبة / ١٢٢ .  
ويسمى الرجل طائفة لقوله تعالى « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ، ٤٩ / الحجرات / ٩ .

فلو اقتتل رجلان دخل فى معنى الآية .

وقوله تعالى « إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا » ، ٤٩ / الحجرات / ٦ .  
وكيف بعث النبى صلى الله عليه وسلم أمراءه واحدا بعد واحد ، فإن سها أحد منهم رد إلى السنة هـ .

وقال أيضا ص ٨٨ :

حدثنى يحيى بن قزعة ، حدثنى مالك عن أسحق بن عبد الله بن أبى طلحة عن أنس ابن مالك رضى الله عنه قال : كنت أسقى أبا طلحة الأنصارى وأبا عبيدة بن الجراح وأبى بن كعب شرابا من فضيخ ، وهو تمر ، فجاءهم آت فقال : إن الخمر قد حرمت . فقال أبو طلحة : يا أنس قم إلى هذه الجرار فاكسرها .

قال أنس : فقممت إلى مهراس لما فضربتها بأسفله حتى انكسرت . هـ .

وقال الشارح الحافظ ابن حجر فى فتح البارى الجزء الثالث عشر ص ٢٠٢ :

( الحديث الثامن ) حديث أنس : كنت أسقى أبا طلحة وأبا عبيدة بن الجراح الحديث ، وفيه : فجاءهم آت فقال : إن الخمر قد حرمت ، وقد تقدم شرحه مستوفى فى كتاب الأشربة ، وإن الآتى المذكور لم يسم ، وإن من جملة ما ورد فى بعض طرقه « فوالله ما سألوها ولا راجعوها بعد خبر الرجل ، وهو حجة قوية فى قبول خبر الواحد ، لأنهم أثبتوا به نسخ الشيء الذى كان مباحا حتى أقدموا من أجله على تحريمه ، والعمل بمقتضى ذلك . هـ .

# فَعَلَّامُ الْمُؤَلَّفَاتِ الْجَدِيدَةِ

## تهافت الفلاسفة للإمام الغزالي

للإمام حجة الإسلام الغزالي كتب جمعة، منها كتاب (تهافت الفلاسفة) ضمنه ردوداً على الفلاسفة الإسلاميين الذين عبوا من ممين الفلسفة اليونانية، ورموا إلى التوفيق بينها وبين الإسلام، وابتعدوا في نظر حجة الإسلام عن القصد؛ فرأى بعد أن شاركهم في الاطلاع عليها، ووقف على جهات ضعفها، أن يبين تلك الجهات من الضعف في كتاب أسماه تهافت الفلاسفة كان له تأثير كبير في صد تيار الفلسفة اليونانية عن المسلمين. وقد طبع هذا الكتاب في مصر وغيرها، ولكن طبعة من تلك لم تبلغ شأواً التي بين أيدينا الساعة في جمال الخط وصفاة الورق وإتقان الطباعة، وملاحظة الترقيم. ولا غرو، فإن متولى طبعه فضيلة الأستاذ النابه الشيخ سليمان دنيا أستاذ الفلسفة وعلم الكلام في كلية أصول الدين. وبما حباه به الأستاذ من العناية التعليق على الكثير من عباراته مما جعل المطالع لا يقف حياء معضلة إلا وجد عنها كلاماً يعين على حلها. وتجده في بعض تلك التعليقات يتوسع ليوفي المقام حقه من البيان. وهذا ما لا يوجد في النسخ المطبوعة التي تقدمته، بله أخطاء كثيرة وقعت فيها.

ومما يزيد هذا الكتاب قيمة علمية أنه وضع له مقدمة ذكر تاريخ المؤلف وطريقته في البحث عن الحقيقة، وتحريه عن الطريق المأمون للإيصال إليها، وهو فصل أوجز فيه كل ما قاله حجة الإسلام في هذا الباب، على نحو لا يحتاج تأليه معه إلى زيادة بيان، وبكشف عن ناحية في الإمام الغزالي لم يشاركه فيها إمام غيره من المؤلفين.

فثنى على فضيلة الأستاذ ثناء يوفي بحقه من إبرازه هذا الكتاب الجليل في هذا الشكل البديع، ويعينه على اتحاف قراء العربية بأمثاله.

## الحقيقة في نظر الغزالي

لفضيلة الاستاذ العلامة الشيخ سليمان دنيا أيضا

الإمام الغزالي من أكبر رجالات الاسلام ، ومن أكثرهم سلطانا على العقول والقلوب ، ناهيك أنه دعى بحجة الاسلام ، ولم يدع بهذا الوصف غيره من العلماء العاملين . وقد عرض لامهات الامور الاعتقادية ، التي حامت حولها الافهام ، واعركت في سبيلها الافلام ، فأفاض فيها متبعا طريقة جمعت بين حرية النظر وسداد الاستدلال ، ألفاها المسلمون تجديدا أخاذا بالالباب ، وثابا الى بعيد الغايات ، فاعتدوا بكل ما كتب ، واعتبروا مذهبه موصلا الى لباب الباب .

نعم إن الامام الغزالي لم تنزه كتاباته عن النقد ، ولكن أنصاره تولوا هذا النقد بالدحض ، فخلص له مذهب في فهم الحقائق يسد أقوى مطامع العقول ، وأبعد مطامح الأرواح . فيكون التصدي لبيان الحقيقة في نظر الغزالي عملا لا يتناول اليه إلا رجل ذو فهم ثاقب ، وذوق عال ، وتقدير دقيق ، ونظر بعيد ، وقد دل ما بين أيدينا من كتاب ( الحقيقة في نظر الغزالي ) أن مؤلفه الألمي الشيخ سليمان دنيا رجل هذا المجال . فقد لخص مذهبه تخيصا موفيا ، وشرحها شرحا كافيا ، وناقشها نقاشا مواتيا ، خلص منه الى بيان صميم الحقيقة في نظر الامام الغزالي ، وما وصل اليها إلا بعد فهم وبسط لا يستطيعهما إلا الجدير بالخوض في هذه المواطن . وإننا لنسر حين نرى في عهدنا هذا من يحلل مذهب حجة الاسلام الغزالي هذا التحليل الدقيق ويصل منه الى ما وصل اليه من التحقيق . إنه لتوفيق عظيم ، وإنا بعمله لمن المعجبين .

## كتاب الاشارات والتنبيهات

لرئيس ابن سينا

أهدانا فضيلة الاستاذ العلامة الشيخ سليمان دنيا المتقدم ذكره مع كتابيه السابقين كتابا ثالثا هو ما جعلناه عنوانا لهذه السطور .

الشيخ الرئيس ابن سينا من أشهر فلاسفة المسلمين وأطبائهم ، وقد طبقت

شهرته العالم كله ، وترجمت كتبه الى كثير من اللغات الأوروبية ، ودرست في جامعاتها ، ولا يزال بعضها يدرس فيها .

لهذا الأستاذ الجليل كتاب في المنطق أسماء الاشارات والتنبيهات اشهر في الخافقين وطبع مرات ، ولكن طبعاته لا تخلو من الخطأ وخال من المنطق ، فرأى مؤلفنا الفاضل أن يخرج هذا الكتاب إخراجاً علمياً ، يأخذ على قدر الطاقة - بما للإخراج العصري من يسر وسهولة ، ودقة وتمحيص .

وقد تم لفضيلة المؤلف ما أراد ، فظهر القسم الأول منه في المنطق . وقد صدره بمقدمة أتى فيها على آراء حجة الاسلام الغزالي والشيخ الرئيس ابن سينا ومهمته ومصدره .

ثم يحى منطق ابن سينا بعد تلك المقدمة لا سرداً كما تفعل دور الطباعة ولكن مع تعقيبات هامة مطولة وهوجزة تدفع حيرة التالى فى كثير من مواطنه ، يخرج منه مطالعه حاصل على فقه منطقى يستوعب جميع معضلاته .

فأشكر فضيلة المؤلف على هديته القيمة ، ونرجو له دوام التوفيق الى أمثال هذه الاعمال العلمية العظيمة .

## كتاب الدين والحج

هذا أجمع ما رأينا من الكتب المؤلفة فى موضوع خاص . فقد استوعب فيه مؤلفه الفاضل الحاج عباس كرايه كل ما يتصل بالحج من فرائض وسنن وأدعية وكل ما يتعلق به مما يجب أن يعرفه الحاج . وزاد فى تكميله فوضع صوراً للأماكن المقدسة وعين بالكيلو مترات بعدها عن المدن الحجازية ، فلم يترك صغيرة ولا كبيرة مما يطرأ على فكر الحاج أو لا يطرأ إلا أتى عليها . ومن فوائده أنه بدأ بشرح أركان الإسلام الخمسة ثم تناول الحج بالكلام فوفاه حقه من كل ناحية . ولو كنا نريد أن نعد ما أتى به من الفوائد عدا لاستوعب ذلك مكاناً كبيراً من هذه المجلة . فكتفى بهذا الإيجاز .

وما لا يصح أن نغفله أن مؤلفه الفاضل عمداً إلى ضروب من المشوقات للاطلاع كالصور الفوتوغرافية ، والاكتشاف من صور الخطوط اليدوية خص بها بعض الأدعية والمواقف . فجاء كتاباً فريداً فى باب يشكر صاحبه على وضعه ويرجى له الجزاء الاوفى .

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حديث القرآن عنه يوم بدر :

## الحديث الديني

الذي ألقاه صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ محمد عبد اللطيف دراز  
مدير الأزهر والمعاهد الدينية

في قصر عابدين العامر ليلة ١٧ من رمضان سنة ١٣٦٧

بسم الله الرحمن الرحيم

« يسألونك عن الأنفال ، قل الأنفال لله والرسول ، فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم ، وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين . إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً ، وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة ، وما رزقناهم ينفقون . أولئك هم المؤمنون حقاً ، لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم . كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون . يجادلونك في الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون . وإذا يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم ، وتوعدون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ، ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ، ويقطع دابر الكافرين . ليقض الحق ويُبطل الباطل ولو كره المجرمون . »

هذه الآيات الكريمة هي صدر سورة الأنفال المدنية ، وتسمى سورة بدر . والأنفال : الغنائم ، وكان قد وقع شيء من الخلاف على قسمتها يوم بدر ، فقررت الآية الأولى أن أمر الغنائم موكل إلى الله ورسوله ، يقضى الله فيها بحكمه ، وينفذ الرسول قضاء ربه . وقد بين هذا الحكم في موضع آخر ، من السورة نفسها : قال تعالى : « واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسة وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل . » فهذا حكم الخمس ، وأما الأخماس الأربعة فهي قسمة بين المجاهدين ، وقد بينت السنة كيفية هذا التوزيع .

ولما كان هذا الخلاف على قسمة الغنائم مما لا ينبغي لهم ، ولا يتناسب وسمو  
الغاية التي يستهدفها المجاهدون في سبيل الله ، ويقفون أنفسهم على تحقيقها ، وهي  
إحقاق الحق ، وإزهاق الباطل ، لتكون كلمة الله هي العليا ، وتقرير الحرية الدينية  
بين الناس حتى لا تكون فتنة في الأرض ويكون الدين كله لله ؛ نقول : لما كان  
الخلاف على الغنائم وقسمتها مما لا يتناسب وسمو هذا المثل الأعلى ، وكان الخلاف  
على إطلاقه في الغنائم أو في غيرها مما يخشى منه على وحدتهم ، وقوة الرابطة  
الإسلامية في نفوسهم - لفتهم القرآن إلى ذلك ، وأهاب بهم أن يتركوا  
الخلاف وسائر الأسباب التي تؤدي إلى الفرقة ، وإفساد ذات البين ، وأن يكفوا  
الفصل فيما اختلفوا فيه إلى الله ورسوله ، مدعنين للحكم ، راضين بالقضاء :  
« فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين » .

ثم يتبين هذا الإيمان بما فصل من دلالة في الاعتقاد وآثاره في الأعمال ؛  
فهو في قلوب المؤمنين خشية من الله إذا ذكر ، واستحضار لجلاله وعظمته في كل  
حين ؛ وهو في عقولهم حكمة ونور تزيده آيات الله بصراً بالحق ، وسعة في المعرفة ،  
ورسوخاً في اليقين ؛ وهو في نفوسهم إطمئنان بالدين ، وتسليم لأمر الله ورضاً  
بقضائه ؛ وهو فيما بينهم وبين الله ، صلاة وعبادة ومناجاة ، وفي مجتمعهم أخوة ،  
وتعاطف ، وإيثار ومواساة ؛ فهم ، الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت  
عليهم آياته زادتهم إيماناً ، وعلى ربهم يتوكلون ، الذين يقيمون الصلاة وما رزقناهم  
ينفقون . .

ثم أخذ القرآن الكريم - على سفته - يقيم البرهان على ما طالبهم به ،  
من الرضا بحكم الله ، وحسن التوكل عليه ، بما يقرر هذه الحقيقة في نفوسهم ؛  
وهو أنه لما كان الإنسان بالغاً ما بلغ علمه ، لا يعرف من وسائل الحق وسبل  
الصلاح ما يعلمه الله جل شأنه بوسع علمه ، وعظيم إحاطته ، وهو لهذا قد يخفى  
عليه من الغايات البعيدة ، والمثل العليا ، ما يريد الله جل شأنه أن يبلغه إياه ،  
ويحمّله عليه - وجب أن يسلم الأمر لله تسليماً ، وأن لا يشك في الأمر بعد  
أن جاءه اليقين من الله ، ولا ينبغي أن يصدّه عن امتثال الأمر والرضا به ، ماعسى  
أن يكون فيه مما تكرهه النفس أو يثقل عليها حمله ؛ فرتب أمر عظيم الخطب ،

شديد الوقع ، ثقيل على النفس ، يكون له من العاقبة المرضية ، والغاية الحسنى ،  
مالم تكن النفس تؤمله وترجوه ، بل مالم تكن تدركه ولا تحيط به .

كان جمهور من المؤمنين يرفض الصلح في الحديبية على الوجه الذي تم عليه ،  
وعدوا قبوله مهانة ومذلة لما في ظاهره من تحكم وعسف لا يليق بعزة المؤمنين ؛  
وكانوا لهذا يريدون أن يأخذوا طريقهم إلى مكة بقوة السيف ، حتى إن عمر بن  
الخطاب قال يا رسول الله ، أأنت برسول الله ! قال بلى ، قال أولسنا بالمسلمين !  
قال بلى ، قال أوليسوا بالمشركين ؟ قال بلى . قال : فعلام نعطي الدنية في ديننا ؟  
قال : أنا عبد الله ورسوله إن أخالف أمره ولن يضيعني .

ومع أن المسلمين لم يدركوا حقيقة الخير فيما ثقل على نفوسهم من هذا الصلح ،  
فقد كان نصراً مؤزراً وفتحاً مبيناً للإسلام والمسلمين ؛ فإذا كان بعض الناس  
يجهلون الحكمة في بعض ما يقضى الله به من قضاء ، وما يلزمهم من أحكام ،  
فليعلموا أن قانون الحق والباطل لا يجري دائماً على ما يحبون وما يكرهون ؛ فقد  
تحب النفوس الشيء وهو وبال عليها ، وقد تكرهه وهو لها صلاح وخير . كما  
أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون ، يجادلونك  
في الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون . وهل لو استسلموا  
فقدعوا عن الجهاد يوم بدر كما كانوا يريدون . ورجعوا إلى المدينة خائفين ،  
أكانوا قد حصلوا على المجد الذي حصلوا عليه يوم بدر ، واستحوذوا على ذلك العز  
والنصر الذي ساقه إليهم الجهاد ، والتضحية في سبيل الله ؟ أما إنهم لو فعلوا لكان  
فشلمهم خاتمهم ، ونهاية أمرهم ؛ ولكن الله الذي يتولى الصالحين ، ويؤيد عباده  
المؤمنين ، قد أراد لهم غير ما كانوا يريدونه لأنفسهم ، فحملهم بتوقيفه وتأييده  
ومعونته على الخطة التي نالوا بها أعلى المثل وأشرف الغايات .

يذكر القرآن الكريم بهذه الآيات موقفهم يوم بدر ، وكان ذلك في رمضان  
في السابع عشر منه من السنة الثانية للهجرة . وبجمل القصة : أن النبي صلى الله عليه  
وسلم ، أراد أن يجزى قريشاً ببعض ما عاملوا به المسلمين في مكة ، حيث  
أخرجوهم من ديارهم وأموالهم ، وشردوهم في البلاد ظلماً وعدواناً ، ولما انتصر  
بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل . إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويغيثون

في الأرض بغير الحق ، فأمر عليه السلام أصحابه أن يخرجوا لغير قريش القادمة بتجارته من الشام لعل الله يعوضهم بها بعض ما سلبته منهم قريش في مكة من دور وأموال ، وما أزعجهم عنه من وطن كان أحب الأوطان إليهم ، وأقربها بجوار بيت الله وحرمة الأمين ، إلى نفوسهم وقلوبهم ، حتى ليقول النبي عليه السلام يوم هجرته مشيراً إلى مكة : « والله إنك لأحب بلاد الله إلي ، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت » .

ومع ذلك فأى مال وأى متاع كان يمكن أن يستعويض به النبي عليه السلام والمهاجرون عن قرارهم في وطن يحبونه مثل هذا الحب ويناجونه مثل هذه المناجاة ؟ ولكنه الانتصار بعد الظلم ، وتأديب المعتدين ببعض ما فعلوا ، وملاقة البغي والظلمين بما يكسر شوكتهم . وينكس رأيتهم ، إحقاقاً للحق وإزهاقاً للباطل ، وتأيداً لكلمة الله ، وإعزازاً لدينه ؛ وفي ذلك يقول الله جل شأنه : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ، ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز . الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور » .

وكان المسلمون يوم بدر قليلى العدد قليلى العدة لم يخرجوا حرب ولا لقتال ، وإنما خف منهم من خف للقاء العير ومصادرة أموال الأعداء ؛ ولم يكن مع هذه الأموال جيش محارب ، بل كان عليها أبو سفيان بن حرب في نفر من تجار قريش وأتباعهم ، فلما علم بأمر المسلمين وما اعتزموا من مصادرة التجارة أرسل إلى مكة يستنهبها لإنقاذ أموالها ، فلم يبق فيها رجل يستطيع القتال إلا خرج أو استأجر مكانه من يخرج ؛ فتجمع بذلك جيش لقريش بلغ عدده أضعاف عدد المسلمين يقوده أبو جهل بن هشام ، ويسير تحت رايته الملأ من عظماء قريش وصناديدها . وتصرف أبو سفيان لأمره فحاد بالعير عن طريق المدينة إلى ساحل البحر ، ثم أخذ طريقه على جدة فإلى مكة ، ثم أرسل إلى أبي جهل يشير عليه بالرجوع حيث لم تبق حاجة إلى القتال بعد نجاة الأموال ؛ فقال أبو جهل : والله لا نرجع حتى نرد

ماء بدر فتتحر الجزور ، ونشرب الخمر ، وتعزف على رءوسنا القيان ، ويسمع العرب بمسيرنا هذا ، فلا يزال الناس يهابوننا بعدها أبدا .

وبذلك تمحضت غاية قريش من القتال إلى أن صارت كما سماها الله بطرا ورتاء الناس ، وكان هذا مما صنعه الله للمسلمين وإن كانوا لا يشعرون ، حتى تقابل في الميدان الباطل المزهو بنفسه المختال بكثرتة وقوته ، مع الحق تفيض به قلوب المؤمنين إخلاصاً له وثباتاً عليه ، فيقع الفريقان تحت حكم الله العدل وسنته القاهرة في الحق والباطل والإخلاص والرياء ؛ لكن المسلمين لم يكونوا قد جاءهم تأويل ذلك بعد ، وإنما كانوا ينظرون إلى الموقف بحسب ما ظهر لهم من أسبابه ، فهم قليل وأعدائهم كثير ، وهم قد خرجوا بغير استعداد ليقابلوا العير لا النفير ؛ فلا غرابة أن يتخوفوا ما دهمهم من أمر لم يكونوا على استعداد له ، وأن يذكروا ذلك للنبي عليه السلام ويجادلوه فيه : « يجادلونك في الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون » . ولكن النبي صلى الله عليه وسلم كان واثقاً من أمره عارفاً بربه مؤمناً بتأييده ونصره : ومع ذلك فقد وقف - على سنته الشريفة في الإنصاف والحرية والشورى - يستشير أصحابه : « انتهى الموقف بقول قائلهم : امض يا رسول الله لما أراك الله ، والله لو استعرضت بنا هذا البحر تخوضه لخنزاه وراك ما تخلف منا أحد » فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقولهم ، ثم قال : « سيروا على بركة الله وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين ، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم » ١ .

والطائفتان : طائفة النفير أي الجيش ، وهي الطائفة ذات الشوكة برجالها وقوتها : وطائفة العير ، أي قافلة التجارة والأموال ، وهي التي لا شوكة لها ولا محذور من لقاءها ، بل فيها ما يحب من الأموال والمتاع ؛ وفي هذا يقول الله جل شأنه : « وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم ، وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ، ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين . ليعق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون » .

وقد تكررت كلمة الحق في هذا السياق . ولها في كل موضع معنى . فهو في قول الله تعالى « كما أخرجك ربك من بيتك بالحق » : الصواب والحكمة بطلاحة الله

ورضوانه؛ وفي قوله تعالى : يجادلونك في الحق ، : القتال ، خلص له القصد بعد  
 نجاة العير وأصبح حقيقة الموقف دون سواء ؛ وفي قوله : ويريد الله أن يحق  
 الحق بكلماته ، : وعد الله الذي وعده رسوله ، وهو تمكينه من إحدى الطائفتين ؛  
 وفي قوله : ليحق الحق ويبطل الباطل ، : الإسلام : يبين الله لرسوله الحكمة في  
 تمكينه من الطائفة ذات الشوكة بعد أن وعدهم إحدى الطائفتين مهمة . وهذه  
 الحكمة هي إن إحقاق الحق وإعزازه لا يكون بالاستيلاء على الأموال  
 والغنائم ، لكن بتمكين الله رسوله والمؤمنين من رموس الكفر وأئمة الباطل ،  
 وقطع دابر المجرمين .

### طائفتاه :

أما إحداهما : فلا تذكر في القرآن الكريم إلا مقرونة بالحق ، وحسبها حقاً  
 في خروجها ومسيرها وغايتها ، أن وليها الله ، وأن قائدها رسول الله .  
 وأما الأخرى : فقد خرجت من دارها بطراً ورثاء الناس ، وقفت حياتها  
 على تأييد الباطل ومناوأة الحق ومطاردة الرسول والمؤمنين ؛ وقد التقى الجمعان  
 على ماء بدر بالقرب من المدينة : الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله ، والذين كفروا  
 يقاتلون في سبيل الطاغوت .

وهذا أول مشهد شهده الخصمان حرباً في سبيل العقيدة ، وقتالاً بين الحق  
 والباطل ؛ فلا جرم أن كان له من الرجاء والخوف في نفوس المسلمين ما يناسب  
 عواقبه الجليلة العظيمة ، إذ عليه يتوقف سير الدعوة الإسلامية وتقرير مكانتها ؛  
 ولا عجب أن حمل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم — حينما رأى كثرة أعدائه  
 وقلة أصحابه في العدد والعدد — على أن يبتهل إلى ربه ويستغيثه ويستنجزه وعده  
 قائلاً : اللهم أنجز لى ما وعدتني ، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام  
 فكن تعبد في الأرض . .

صبر المسلمون في القتال وثبتوا لأعدائهم ثبات الجبال ، وآمنوا إيماناً نزلت  
 عليه الملائكة من السماء ، وكانت ساعة استجاب الله فيها لرسوله صلى الله عليه وسلم ،

ومنع المسلمين ظهور أعدائهم فاتبعوهم ، فريقاً يقتلون ، وبأسرون فريقاً ، وفر من نجا منهم إلى مكة مهزوماً طريداً : وكانت النتيجة أكبر من نصر متعارف ، وأهم من فوز فريق على فريق : كانت آية بينة عنت لها وجوه العرب ، فأخذوا يتأملون الأمر أكثر من ذي قبل ، وينظرون إلى الدعوة نظراً إلى حقيقة عظيمة تمثل السمع والبصر والفؤاد : فلا عجب أن سمي الله يوم بدر فرقاً بما فرق به بين الحق والباطل ، وأن كان ليوم بدر ولأبطاله المؤمنين من المسكنة في الإسلام وفي تاريخ المسلمين ما لم ينله مشهد سواه . وفي ذلك الموقف من الرسول قبيل الموقعة يقول الله جل شأنه : « إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مرءفين . وما جعله الله إلا بشرياً ولتطمئن به قلوبكم ، وما النصر إلا من عند الله ، إن الله عزيز حكيم » .

#### حضرات السادة :

إنه لمن بين الطالع وسعادة المناسبة ، أن نتذكر موقعة بدر في مياعدها من هذا الشهر الكريم : فقد كانت في السابع عشر من رمضان ، وأن نتذكرها وجيوش العرب والمسلمين في فلسطين ما زالت في موقف الجهاد في سبيل الحق الذي جاهد في سبيله المسلمون يوم بدر ، وأن نرى الباطل اليوم — كما كان يوم بدر بل أشد وأظنى — متألماً بجمعه وحوله وطوله على الحق الذي يستمد معونته ونصرته من الله العزيز الحكيم . فإن تكن لنا من الإسلام هداية فهدايتنا اليوم منه أن نؤمن كما آمن أهل بدر ، وأن نشق بأنفسنا كما وثقوا بأنفسهم ، وأن نوقن يقيناً لا يخالجه أدنى شك بأن الله الذي أقام السموات والأرض بالحق ، وأرسل رسله بالهدى ودين الحق ، وأنزل الكتب من السماء قياماً بالحق ودعوة إليه ، لا يؤيد جل شأنه الباطل مهما طغى وبغى وكثر أتباعه ، على الحق وإن قل أعوانه وأنصاره . وإذا رأيت الباطل مزهواً مختالاً يريد أن يخرق الأرض أو يبلغ الجبال طولا ، فاصبروا له ساعة من الزمان ، وارقبوا ما يؤول إليه أمره . فإنه في اضمحلال وإلى زوال ، ولا مناص له — طال الزمن أم قصر — من أن تدمغه سعة الله التي لا تحول ولا تزول ، بصاعقة من الحق تزلزل أركانه وتهدم بنيانه ، ويومئذ يعلم المبطلون الذين حموا هذا الباطل وأقاموه مراغمة لأبسط مبادئ العدالة

أن مقاليد السموات والأرض بيد الله لا بأيديهم ، وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين ، لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين . بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق . .

ألا وإن مثل القضية بين الحق والباطل في التاريخ كثيرة لا تعد ، أشبهها بقضية اليوم موقف مصر وعليها صلاح الدين ، ومعها العرب والمسلمون ، في وجه الصليبيين : ثم في وجههم ووجه التتار جميعاً ... وقفت مصر إذ ذاك للدنيا كلها ، كما تقف اليوم للدنيا كذلك وعليها الفاروق العظيم ، ومعها إخوانها العرب والمسلمون ؛ وكما نصرها الحق بالأمس سينصرها اليوم إن شاء الله . ومن يعيش يره ، ولتعلمن نبأه بعد حين .

أما بعد ، فإنني أبتهل إلى الله جل شأنه في هذه الليلة العظيمة والذكرى المباركة التي نتذكر بها آيات الله وهدى الله في شهر الله رمضان ، أن يؤيد الفاروق العظيم ويمد في عمره ويبسط في ماسكه ، وأن يعينه سبحانه ويكلاه برعايته وتوفيقه فيما وقف نفسه عليه من العمل الدائب والجهاد المتواصل في سبيل النهوض بالامة وتقدمها في سائر مناحي الحياة .

وأسأله سبحانه أن يحزبه خير الجزاء على ما أناله للمسلمين في مصر وفي خارج مصر من هذه المجالس الطيبة المباركة ، حيث يجتمعون ليستمعوا إلى كتاب الله يتلى عليهم ويتدارسونه بينهم .

كما أسأله جل شأنه أن يؤيد ويرعى بالتوفيق والسداد سائر ملوك العرب والمسلمين ورؤسائهم وأمرائهم ، وأن يعينهم في جهادهم الحق ضد الباطل والمبطلين ، ويسددهم في السلم والحرب ، ويكتب النصر والظفر للمجاهدين ، وأن يعيد على أيديهم دولة العروبة ومجد الإسلام .

والسلام عليكم ورحمة الله .

## الاسلام حمى الانسانية من الانهيار

لم تتجمل حاجة العالم الى الإسلام مثل ما تجملت في عهدنا هذا .  
لقد كان قيام الإسلام في أول وجوده حدا فاصلا بين التدهور الاجتماعى العام ،  
وبين العالم كله : وقد لخص المستشرق ( جول لا بوم ) الفرنسى صاحب الفهرست  
لآيات القرآن العظيم ، حالة العالم كله قبيل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم ، فأثبت بالأدلة  
التاريخية أن العالم برمته كان في حالة تنازع وتناحر ، لا يبدأ لأمة جأش ، ولا يترك لها  
عهد استقرار ، يمكن أن تتطور فيه في الوجهة الادبية والعلمية ، بل كانت تتطور في التبدل  
في هاتين الناحيتين ، حتى لو كانت بقيت على ما كانت عليه لتجردت بعد بضعة قرون  
أخرى من كل ما حصله أجدادها من أدب وعلم وصناعة ، وباءت بأسوأ ما يبوء به  
العارون من هذه الفتوحات العقلية المكتملة للإنسانية ، فقال العلامة جول لا بوم :  
« حوالى ميلاد محمد في القرن السادس الميلادى ، كان جو العالم متلبدا بغيوم  
الاضطرابات والفتن . . »

ثم أخذ يسرد ما كانت عليه الأمم قاطبة في جميع أنحاء الأرض من التناحر  
الوحشى بين الجماعات البشرية ، ثم قال :  
« الخلاصة أن جو العالم الأرضى كان متلبدا بسحب القلاقل الهمجية ،  
وكان اعتماد الناس على وسائل الشر أكثر من اعتمادهم على وسائل الخير ، وكان  
أجمع الرؤساء للثقة والطاعة أشدهم صيحة في إصلاء نيران الحروب والمعارك :  
ولم يكن يأخذ بعواطف القلوب ولا يؤثر عليها تأثيرا حادا وإن كان وقتيا إلا شئ  
واحد ، وهو الغنيمة وسلب الأمم والشعوب والمدائن والأعيان ورجال  
الحروب وفقراء الحرائين وسذج المتسولين . . »

ثم ختم المسيو جول لا بوم مقدمته التفصيلية هذه بقوله :  
« في عهد هذه الأحوال الخالصة ، وفي وسط هذا الجيل الشديد الوطأة ،  
ولد محمد بن عبد الله في ٢٩ أغسطس سنة ٥٧٠ م . . »

وقد ثبت تاريخيا وبشهادة المؤرخين أنفسهم أن المسلمين الأولين انتشروا  
في الأرض يبلغون الأمم دعوة الإسلام : فاندفعوا يقتبسون ما صادفوه من العلوم  
والصناعات لدى تلك الأمم ، وأخذوا يتدارسونها ويتقنونها ، ودفعهم حب التكمّل

الى البحث عن نصوصها في مصادرها المكتوبة ، فلم يحرقوا ما صادفوه في البلاد التي افتحوها من الكتب العلمية ، كما كان يفعل غيرهم من الفاتحين ، ولكنهم كانوا يستولون فيها على أمهات المصادر العلمية ، ويستأجرون العارفين بلغاتها لكي يترجموها لهم ترجمة حرفية ، ويغدقون على أولئك التراجمة من المال ما يغريهم على الدؤوب والاجتهاد والتبارى في الإنتاج : ثم أكبوا على دراستها وتطبيقها على العمل ، وساعدتهم في ذلك مـاوكهم وأمرؤهم وأسريائهم حتى انتقلت إليهم الخلافة العلمية بعد اليونانيين والرومانيين ، وأصبحت جامعاتهم محط رحال مريدي الاستفادة من جميع الأمم ، وزادوا في مواد العلوم بما اكتشفوه في الطب والكيمياء والطبيعات والرياضيات الخ . ولم يهملوا الفلسفة على مجافاة جمهورهم لها ، لا لاعتبارات وهمية ، ولكن لما ظهر لهم من أنها تركّز في مقدماتها على الخيالات والظنيات ، وهذه في نظرهم لا توصل الى يقين ، فالشغل بها يكون عرضة للأخطاء : وقد ثبت بعد نظرهم في هذا الموضوع ، وصدقت فراستهم فيه ، فقد اتضح بعد أن ترقّت العلوم أن كل الظنيات الفلسفية كانت خيالات لا حقيقة لها ، فصرف المسلمون همّهم في إتقان العلوم المرتكزة على الأدلة الواقعية ، والمنافع الحيوية ، فارتقت معارفهم ، وتطوّرت مداركهم ، ووصلوا الى مدى بعيد من الرقي استحقوا به خلافة الله في الأرض . والى القارىء رأى مؤرخى أوروبا في ذلك :

قال العلامة ( سديو ) Sédillot في كتابه تاريخ العرب :

« كان المسلمون في القرون الوسطى متفردين في العلم والفلسفة والفنون ، وقد نشروها أينما حلت أقدامهم ، وتسربت عنهم الى أوروبا ، فكانوا هم سببا لنهضتها وارتقائها . »

هل يدري القارىء ماذا كانت أوروبا في ذلك العهد ، وخاصة بعد أن مزقت الحروب الداخلية أحشاءها ، وتوقفت الحركة العلمية فيها قرونا طويلة ؟ .  
الأولى بنا في هذا المقام أن نستشهد بالأجانب . قال العلامة ( دريبر ) في كتابه ( المنازعة بين العلم والدين ) :

« إن أوروبا في ذلك العهد كانت غاصة بالغابات الكثيفة من إهمال الناس للزراعة ، وكانت المستنقعات قد كثرت حوالى المدائن ، وكانت تنتشر منها روائح

قتالة اجتاحت الناس وأكثهم . وكانت البيوت فى باريز ولوندرة تبنى من الخشب والطين المعجون بالقش والقصب . ولم يكن فيها نوافذ ولا أرضيات خشبية . أما الأبسطه فكانت مجهزة لديهم ، وكان يقوم مقامها القش ينشرونه على الأرض نشرًا . ولم يكونوا يعرفون المداخن ، فكان الدخان يطوف الدار ثم يتسرب من ثقب صنعوه له فى السقف . فكان الساكنون فيها معرضين لضروب الإصابات الخطيرة . وكان الناس لا يعرفون للنظافة معنى ، فيلقون بأحشاء الحيوانات ، وأقذار المطابخ أمام بيوتهم أكواما تتصاعد منها روائح قاتلة ، ولا رقيب عليهم . وكانت الأسيرة تنام فى حجرة واحدة رجالا ونساء وأطفالا ، وكثيرا ما كانوا يؤوون معهم الحيوانات المنزلية .

إلى أن قال : « هذه الجهالة كان من أثرها على أوروبا أن عمتها الخرافات والأوهام ، فأنحصر التداوى فى زيارة الأماكن المقدسة ، ومات الطب وحييت أحاييل الدجاجة . الخ الخ . »

نقول : احفظ هذا وقابله بما كانت عليه الحالة عند المسلمين فى تلك الأيام ببركة النهضة العلمية والاجتماعية التى أوجدتها الإسلام ، ننقله لك عن العلامة دريبر نفسه فى كتابه المذكور ، قال :

« لم تكن أوروبا العصرية بأعلى ذوقا ، ولا أرق مدنية ، ولا ألطف رونقا من عواصم الأندلس على عهد العرب ، فقد كانت شوارعهم مضاعة بالأنوار ، ومبلطة أجمل تبليط ، والدور مفروشة بالأبسطه ، وكانت تدفأ شتاء بالمواعيد ، وتهوى صيفا بالنسيمات المعطرة بواسطة إمرار الهواء تحت الأرض من خلال أوعية مملوءة زهرا : وكانت لهم حمامات ومكتبات ومطاعم وينابيع مياه عذبة الخ . ويقول فى مواطن أخرى : « إن جامعات المسلمين كانت مفتوحة للطلبة الأوربيين الذين نزحوا إليها من بلادهم لطالب العلم ، وكان ملوك أوروبا وأمراؤها يقدون على بلاد المسلمين ليعالجوا فيها . »

لسنا هنا بصدد أن المسلمين لم يمض عليهم قرنان حتى بلغوا الى هذه الدرجة السامية من الرقى بينما كان الأوربيون فى حالة فقرى سريعة نتيجة للحروب التى

كانت ناشبة بين جماعاتهم ، ولكننا بسبيل التدليل على أنه لولا المسلمون لاستمرت أوروبا في تدهورها ووصلت الأمم العائشة فيها إلى أسوأ مما وصفه العلامة (دريبر) ولتلاشى منها كل ميل إلى تدارك الخطر ، وانتهى أمر العالم كله إلى همجية محضة .

ولكن السنة الإلهية التي شوهدت آثارها في الجماعات البشرية على مدى الزمان ، تدل أن التدهور متى بلغ إلى درجة مؤذنة بسيادة الوحشية الباهتة ، بعث الخالق أمة من العدم ، وحلها بالميل التي تدفعها إلى الرقي ، وأمدّها بالوحي الذي يرشدها إلى الصراط السوي ، فترتقي في سنين معدودة إلى أرقى ما تسمح به الوسائل المعاصرة ، وتنجي ميراث العقلية البشرية من التلاشى ، وتستولي عليه وتزيده مادة ، وتنتشر في الأرض فتبث في أممها من روحها ما يقف من تدهورها ، وما يمدّها من عوامل حياتها ، فتسترد البشرية نزوعها الطبيعي للبقاء ، وتبلغ ما قدر لها من الارتقاء .

وقد اختار مدبر الكون جل شأنه لإحداث النهضة العالمية الأخيرة الأمة الإسلامية ، فقامت بها ندبت له تحت تأثير الوحي الإلهي ، والقيادة النبوية المهمة ، فوقفت الحركة القهقرية التي كانت شملت الأمم كافة ، ورسمت لها طريق النجاة ، بما حصلت عليه من التراث الأدبي والعلمي والمدني للبشرية ، وزادت عليه .

نعم إن الله يغار على عباده فلا يدعم تحت سلطان الأهواء حتى تؤديهم إلى الفناء ، فلم تكن الأمة العربية لناط هذه المهمة بأمة أخرى ، ولكنه اختار العرب ومنحهم هذه الكرامة ، ولا حرج لفضل الله . وقد صرح الكتاب الشريف بذلك فقال تعالى : « وإن تولوا ( أي عجزا عما تستدعيه هذه المهمة العالمية ) يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم » .

فعلى الذين يكتبون في الإسلام ويعلمونه للناس أن ينووا بهذه المهمة الإسلامية الخطيرة ويدلّلوا عليها بشهادات الأجانب أنفسهم لها ، كما نفعل ، فإنها تضع الإسلام من الأذهان في مكائته العليا ، وتكون أفعل في نشره من جميع عوامل النشر .

محمد فريد وهري

## البعوث في الإسلام

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ طه محمد الساكت  
مبعوث الأزهر الى مكة المكرمة

عن أبي موسى رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا بعث أحداً من أصحابه في بعض أمره قال : « بَشِّرُوا وَلَا تَفْتَرُوا ، وَبَشِّرُوا وَلَا تَعْتَرُوا ، » .

وعن سعيد بن أبي بُردة عن أبيه عن جده أن النبي صلى الله عليه وسلم بعثه ومعاذاً الى اليمن فقال : « يَشِّرَا وَلَا تَعْسِرَا ، وَبَشِّرَا وَلَا تَفْتَرَا ، وَتَطَاوَعَا وَلَا تَخْتَلَفَا ، » رواهما الشيخان .



حق على الدعاة الى الله عامة ، ومن ولاه الله منهم مقاليد الأمور خاصة ، أن يتبينوا تاريخ البعث في الإسلام ، وكيف كان يتخيرها النبي عليه الصلاة والسلام : فإنما تنجح الدعوة وتوثق أكلها بمقدار إخلاص صاحبها وحسن اختياره . ونحاول هنا ، ونحن في بعث الى البلد الحرام ، أن نقبس من الهدى النبوى في البعث الإسلامية ، ما نرجو أن يكون للدعاة منارا ، وللهادين ضياءً .

هاجر النبي صلوات الله وسلامه عليه ، من مكة إلى المدينة ، على رأس ثلاث عشرة سنة ، رأى فيها وهو صابرٌ مُصابِرٌ ، من ضروب الأهوال ، ما ينوء بُشم الجبال . وما إن استقر أمر الإسلام أو كاد حتى أخذ عليه الصلاة والسلام يبعث البعث إلى البلاد النائية ، يجاهدون في الله حق جهاده ، ويدعون إلى الله على هدى وبصيرة ، ويحكمون بين الناس بالحق ، ويفقهونهم في دين الله عز وجل <sup>(١)</sup> .

وكان صلوات الله عليه يوصى ببعثه بوضاياء الجامعة ، وعظاته البليغة ، ليسكونوا عنوان الهداية وموضع القدوة .

(١) فالمراد بالبعث هنا : ما يشمل الغزاة والمجاهدين ، والقضاة والمرشدين .

وهذا نموذج من وصيته لما بمث صاحبيه أبا موسى الأشعري ، ومعاذ ابن جبل الى قومهما وبلدهما باليمن ، وكانا من أعلم الصحابة بالحلال والحرام ، وأدراهم بأحكام الإسلام ؛ أوصاهما بخلال ثلاث ، هن جماع الفقه والحكمة ، وعماد العلم والمعرفة ؛ وعلمين يبني أمر الدين كله أصولا وفروعا ، وآدابا ومكارم ، وهن أو بما يُردّ إليهن كان يوصى أصحابه في عامة الأمر وخاصته .

الأولى : التيسير ، وهو ضد التعسير ، والمراد به التسهيل على الناس والتخفيف عليهم في الدعوة والعبادة ، والعلم والعمل ، وأخذهم بالتدرج في الأمور شيئا فشيئا ، ولا سيما حدثاء العهد بالإسلام . ومن قارب حد التكليف من الصبيان ، ليمرنوا على الإسلام وخصاله ، إلى أن يأنسوا به ويهشوا له ، ويختلط بهم اختلاط اللحم بالدم ؛ ولا بأس حينذاك أن يأخذهم ببعض الحزم والشدة . ولو حمل الناس على الحق جملة لتركوه جملة . وكمن دأب عسر ولم ييسر ، وشدد ولم يخفف ، غاب سعيه ، وضاع أمله ، وذهبت دعوته أدراج الرياح .

إنه لا ينبغي لأحد أن يتصدى للدعوة إلا من بعد أن يفقه سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ومنهاجه فيها ، كما لا يحل لإمام أو أمير أن يوليها أحدا إلا إذا كان لها كفتاً ، وبها جديراً . لقد بنى هذا الدين على التيسير ، وأشاعه النبي صلى الله عليه وسلم في جميع أقطاره ، وقال : إن الدين يسر ، ولن يُشادَّ الدين أحد إلا غلبه فسددوا وقاربوا ؛ ونهى عن التعمق في الدين ، وشدد التنكير على المتعمقين ، وقال : هلك المتطعون ثلاثا . ودخل المسجد فإذا حبل ممدود بين ساريتين ، فقال ما هذا الحبل ؟ قالوا : هذا حبل لزينب ، فإذا فترت تعلقت به ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : حُلِّثُوهُ ، ليصلَّ أحدكم نشاطه ، فإذا فتر فليرقد . ودخل على عائشة رضي الله عنها وعندها امرأة ، فقال من هذه ؟ قالت هذه فلانة ، تذكر من صلاتها . قال : مه ، عليكم بما تطيقون ، فوالله لا يمل الله حتى تملوا .

وقالت عائشة رضي الله عنها : ما أُخِّير رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين قطُّ إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثما ، فإن كان إثما كان أبعد الناس منه ، وما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه في شيء قط إلا أن تنتهك حرمة الله

فيمتقم الله بها . ودخل المسجد أعرابي فانتحى منه ناحية ، وبال فيها ، فثار اليه الناس وهموا به ، فزجرهم صلوات الله وسلامه عليه وقال دعوه وأهريقوا على بوله ذنوباً من ماء - أو تجحلاً من ماء<sup>(١)</sup> - فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين . وكان عبد الله بن مسعود رضى الله عنه يذكر الناس كل خميس فقال له رجل : يا أبا عبد الرحمن لو ددت أنك تذكرنا كل يوم فقال : لا يمنعني من ذلك إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتخولنا بالموعظة خشية السامة علينا . وكانت الحنيفية السمحة فرائض وسنن ، وآداباً وفضائل ، ليأخذ كل من بعد الفرائض بالتقسط الذى يسر الله له . ورخص الله للناس فى كل ما يشق عليهم أدائه ، فأباح للمسافر الفطر فى رمضان ، وأوجبه على من خشى هلاكاً أو قاربته ؛ وأمر صلى الله عليه وسلم العاملين على الصدقات أن ييسروا على الأغنياء فى الجباية فيكثفوا بالوسط ولا يرهقوهم بأخذ السمين والمتقى . وسن للمسافر قصر الصلاة ، وأمر الإمام بالتخفيف فيها ؛ فإن فى الناس المريض والضعيف وذا الحاجة . وكان إذا سمع بكاء الطفل ، يتجوز فى صلاته رفقا بأمه . وكان يأمر بالأخذ بالرخصة ويقول : إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه . . . الى غير ذلك من أمثلة لا يحصىها العد ، ثابتة كلها فى صحيح الآثار ، ومتقى الأخبار ، بلغت - أو كادت - مبلغ التواتر .

ومالنا نعدّد الأمثلة ونبسّط الأدلة ، وقد علم الناس جميعاً أن دين الله هو دين الفطرة ، فطرة الله التى فطر الناس عليها ، وأنه واضح المنهج فى عقائده وأحكامه ، سهل المأخذ فى كل أمر من أموره ، وحسب الناظر فيه ومن ابتغاه ديناً أن يعلم أن الأعرابي الجلف كان يجلس بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ساعة من نهار ، فيتلقى عنه الدين كله ، فإذا هو خلق آخر ، قد ملئ نوراً وهدى ، وكان منذ ساعة قطعة من الظلمات تمشى على الأرض .

لا جرم أن الدين يسر ، ولكن لا يحسب الذين لا يفقهون ، أن يسره أو التيسير فيه ، يدعو إلى النهاون فى أمره ، أو التساويل فى فصوصه ، أو تتبع الرخص التى تروى عن علمائه والفقهاء فيه ؛ فإن الدين حبل الله المتين ، وصراطه

(١) الذنوب والسجل : الدلو ، وأو لشك من الراوى فى أى اللفظين قاله صلى الله عليه وسلم .

المستقيم ، لم يكن في شأن من شئونه غالبا ولا جافيا ، وكان بين ذلك قواما ، لا إفراط ولا تفريط .

إنه ليوشك من تأول فيه لشهوة أو هوى ، أو تهاون فيه عن عمى وجهالة ، أو تتبع الرخص المروية هنا وهناك ، يتلقفها تلقف المتلاعبين ، أو يعتمد عليها اعتماد الجاحدين المهوسين إنه ليوشك هؤلاء جميعا أن يخرجوا من الدنيا بغير دين . فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم .

\*\*\*

قال شراح الحديث - وذلك من أحسن ما قالوا - : وإنما أردف صلى الله عليه وسلم أمره بالتيشير نهيته عن التعسير ، مع أن الأمر بالشئ يستتبع النهي عن ضده ، تقوية وتوكيدا ، حتى لا يدع لمتنطع عذرا ؛ على أنه لو اقتصر على التيسير لتحقيق امثال الأمر مرة واحدة ، وإن عسر مرارا : فلما قرنه بالنهي عن التعسير ، فهم أن المراد المداومة على التيسير .

تلك الجملة الأولى من الخلال الثلاث . وإذا ضاق المقام عن استيفاء الخلتين الآخرين ، فالم وعد عدونا الآتي ، إن شاء الله .

## تصيد الدراهم

قال الأصمعي : كنت عند الرشيد إذ دخل عليه إبراهيم الموصلي فأنشده :

وآمرة بالبخل قلت لها اقصرى      فليس إلى ما تأمرين --- بيل  
فعالي فعال المكثرين تجملا      ومالي كما قد تعلمين قليل  
فكيف أخاف الفقر أو أحرم الغنى      ورأى أمير المؤمنين جميل

فقال الرشيد : لله آيات تأتينا بها ما أحسن أصولها ، وأبين فصولها ! يا غلام أعطه عشرين ألفا . قال الموصلي : لا أخذت منها درهما . قال الرشيد : ولم ؟ قال : لأن كلامك يا أمير المؤمنين خير من شعري ! . قال : أعطوه أربعين ألفا . قال الأصمعي : فعلت أنه أصيد لدراهم الملوك مني .

# الحج عن الغير

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ فكري ياسين  
المدير المساعد لإدارة البحوث والثقافة بالأزهر

يكثّر الكلام بين الناس عند كل موسم من مواسم الحج ، حول موضوع « الحج عن الغير » ، ويمتد حديثهم عنه ، واهتمامهم به ، الى حدّ التساؤل عن أصله وحكمه ، وعما يقع من إفاد بعض الأفراد كل عام للحج عن غيرهم ، وعما يرصده بعض الأشخاص من الأموال والأحباس للإنفاق منها بعد موتهم في هذا السبيل ، وهل لذلك كاه أصل في الإسلام ، وجاءت به أحكامه ؟ أو هو أمر جرى به متعارف الناس ومألوفهم ؟ .

وقد رأينا من أجل ذلك ، أن نؤثر هذا الموضوع الهام ، بالكتابة فيه ، رعاية لمناسبة موسم الحج ، وإذواءً لعلّة المتحدثين فيه .

\*\*\*

معروف أن من بين التكاليف الشرعية العملية ، العبادات ؛ ومعروف أيضا أن العبادات تنوع الى أنواع : فمنها ما هو مالى محض كالزكاة ، ومنها ما هو بدنى محض كالصلاة ، ومنها ما هو مركب منهما كالحج ؛ فالأولى تقبل النيابة مطلقا في حالتي الصحة والمرض ، لحصول المقصود - وهو إيصال النفع الى الفقراء - بفعل النائب ؛ والثانية لا تقبل النيابة بحال ، لأن المقصود - وهو تزكية النفس ، والاتصال بالخالق - لا يحصل بفعل النائب .

أما الثالثة ، وهى الحج ، فالجمهور من الفقهاء على أنها تقبل النيابة ؛ فن عجز عن الحج بنفسه ، وجب عليه أن يستنيب غيره ليحج عنه ، ولكنهم اختلفوا بعد ذلك في الشروط والالتزامات ، والأوصاف والأحوال ، التي يجب أن تتوفر في الحاج والمحجوج عنه ؛ وقد نمنا كل فريق منهم فيها المنهى الذي

يوافق أصول مذهبه ، ويتفق مع قواعده ، وهي مبسطة في كتب الفروع ، فليرجم إليها من أراد .

أما غير الجمهور فإنه يرى أن الحج وإن كان عبادة مركبة من بدنية ومالية ، إلا أنه قد غلب فيها جانب البدنية ، فهي لا تقبل النيابة : فمن كان عليه حجة الإسلام ، فلا يجوز له أن ينوب من يحج عنه ، سواء كان صحيحاً أم مريضاً ترجى صحته : ومن عجز عن الحج بنفسه ، ولم يقدر عليه في أى عام من حياته ، فقد سقط عنه الحج بناتاً : وإذا استأجر من يحج عنه ، سواء كان صحيحاً أم مريضاً ، وسواء كان الحج ورعاً أم نفلاً ، فإنه لا يكتب له أصلاً ، بل يقع نفلاً للأجير ، وللستأجر ثواب مساعدته على الحج ، وبركة الدعاء الذى يدعو به .

وقد اعتمد الجمهور فى الاستدلال لمذهبه على ما صح عنه من أحاديث وآثار ، وبخاصة ذلك الحديث المشهور المعروف بحديث الخثعمية ، (١) وهو ما أخرجه البخارى عن ابن عباس ، قال : كان الفضل رديف النبي صلى الله عليه وسلم ، فجاءت امرأة من خثعم ، فجعل الفضل ينظر إليها وتنظر إليه ، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يصرف وجه الفضل الى الشق الآخر ، فقالت : إن فريضة الله أدركت ابن شيخنا كبيراً ، لا يثبت على الرحلة ، أفأحج عنه ؟ قال : نعم ، وذلك فى حجة الوداع . قال ابن العربى : حديث الخثعمية أصله يتفق على صحته فى الحج ، خارج عن القاعدة المستقرة فى الشريعة من أن ليس للإنسان إلا ما سعى ، وفقاً من الله فى استدراك ما فرط فيه المرء بولده وماله .

\*\*\*

هذا هو وضع المسألة فى ذاتها ، وبحسب ظاهرها الفقهى ، ولكن الواقع أن للمسألة وراء هذا الوضع ، مراكمتين ، وأصلاً دقيقاً ، هو مثار الخلاف فيها ، والنزاع عليها ، وقد اصطخبت حوله الآراء ، وتشعبت فيه الأفكار ، ووقف منه بعض العلماء موقف القبول والتأييد ، كما وقف منه البعض الآخر موقف الرد والتفنيد . وهذا الأصل - وقد أشار إليه ابن العربى فى كلامه السابق - هو : أن الإنسان إذا جعل ثواب عمله لغيره - صلاة كان هذا العمل ، أو صوماً ، أو حجاً ، أو صدقة أو قراءة قرآن ، أو ذكراً ، أو غير ذلك ، من جميع أنواع البر - هل يجعل بهذا

(١) نسبة الى خثعم وهي قبيلة مشهورة .

الجعل ، ويصل الثواب الى ذلك الغير ، وينفعه ؟ أو أنه لا يجعل ، بل يلغو ، ولا يصل الثواب الى الغير ، ولا ينفعه ؟ .

وقد افرق العلماء حيال هذا الاصل ، الى فريقين : فريق يرى أنه ليس للإنسان أن يفعل شيئاً من ذلك ، وأنه لا يصل الثواب ، ولا يحصل الانتفاع به ، واستدل على رأيه هذا ، بقوله تعالى : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يُرى ، وبنحو قوله صلى الله عليه وسلم : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث ، وقوله : « لا يصوم أحد عن أحد ، ولا يصلي أحد عن أحد ، .

والفريق الآخر يرى أن الإنسان له ذلك ، وأن الثواب يصل ، وينفع : وقد استدل بما جاء في الصحيحين ، من « أنه صلى الله عليه وسلم ضحى بكبشين أملحين <sup>(١)</sup> ، أحدهما عن نفسه ، والآخر عن أمته ؛ وبما جاء في سنن ابن ماجه ، من أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا أراد أن يضحى يشترى كبشين عظيمين سميين ، أقرنين أملحين ، موجهين ، فذبح أحدهما عن أمته ، بمن شهد الله بالوحدانية ، وله بالبلاغ ، وذبح الآخر عن محمد وآل محمد ، ؛ وبما رواه ابن أبي شيبة من « أنه صلى الله عليه وسلم ، أتى بكبشين أملحين عظيمين ، أقرنين موجهين ، فأضجع أحدهما ، وقال : بسم الله ، والله أكبر ، اللهم عن محمد وآل محمد : ثم أضجع الآخر ، وقال : بسم الله ، والله أكبر ، اللهم عن محمد وأمته ، بمن شهد لك بالوحد ، وشهد لي بالبلاغ ، ؛ فإن هذه الروايات كلها ، تدل على أنه صلى الله عليه وسلم ، جعل تضحية إحدى الشاتين عن أمته ، وجعل ثوابها لها ؛ وهذا تعلم منه عليه الصلاة والسلام ، أن الإنسان ينفعه عمل غيره .

وقد استدلوا أيضا بما روى عن أنس أنه سأله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « يا رسول الله إنا نتصدق من مواتنا ، ونحج عنهم ، وندعو لهم ، فهل يصل ذلك إليهم ؟ ، قال : « نعم ، إنه ليصل إليهم ، وإنهم ليفرحون به ، كما يفرح أحدكم بالطبق إذا أهدى إليه ، .

فهذه الآثار كلها ، وكثير في السنة غيرها ، يبلغ القدر المشترك فيها ، بين السك ، مبالغ التواتر ، وهو أن من جعل شيئاً من الصالحات لغيره ، نفعه الله به .

(١) الملهة : يياض يشوبه شعرات سود .

وليس هذا فقط ، فقد جاء في القرآن الكريم الأمر بالدعاء للوالدين ، في قوله تعالى : « وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا » كما جاء فيه الإخبار باستغفار الملائكة للؤمنين في قوله تعالى : « والملائكة يسبحون بحمد ربهم ، ويستغفرون لمن في الأرض » وفي قوله : « الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ، ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا » وساق عبارتهم : « ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما ، فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك » إلى قوله « وقهم السيئات » — فهذا كله قطعى في حصول الانتفاع بعمل الغير ؛ وهو — كما ترى — يخالف ظاهر آية : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » إذ ظاهرها أنه لا ينفع استغفار أحد لأحد بوجه من الوجوه ، لأنه ليس من سعيه ، فلا يكون له منه شيء ، فيجب إذن القطع بانتفاء إرادة ظاهر الآية ، ويحتمل حينئذ أن تكون مقيدة بالثواب الذى لم يهبه العامل لغيره ، أما الذى يهبه لغيره ، فإنه يصل وينفع ، ويكون المراد من الآية على هذا ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى : أى إلا إذا وهبه العامل له ، فإنه يصل وينفع .

أما حديث : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث » فقد ردوا على المستدلين به ، بأنه إن دل على انقطاع عمل الميت ، فإنه لا يدل على انقطاع عمل غيره ، والكلام فى عمل الغير ، لا فى عمل الميت ، على أنه ليس فيه شيء مما يستبعد عقلا ، لأنه ليس فيه إلا جعل ماله من الأجر لغيره ، والله تعالى هو الموصل إليه ، وهو قادر عليه ، ولا يختص ذلك بعمل دون عمل .

وأما حديث : « لا يصوم أحد عن أحد » ولا يصلى أحد عن أحد ، فقد قالوا فى الرد على من استدل به : إن ذلك فى حق الخروج عن العمدة ، وسقوط الفريضة ، لا فى حق الثواب ، والانتفاع به .

هذا هو الأصل السكامن وراء تلك المسألة ، والمثير للخلاف فيها ؛ وهذا هو تفصيل موقف العلماء منه ، وبيان حججهم ، وردودهم ؛ والظاهر من مجموعها ، رجحان رأى القائل بوصول الثواب إلى الغير ، والانتفاع به ، إذا شاء الله تعالى .